

روايات أحلام



ريبيكا وليست

متى ينتهي الرحيل؟



www.elromancia.com

مروية

روايات أحلام

متى ينتهي الرحيل؟

ريبيكا ويت

عاشت مع جدها خلف أسوار القصر، بعيدة عن العالم. وعندما توفي جدها، وافقت داماريس على الزواج من ورثته، ابن عمها المجهول مارك، حتى تظل محتفظة بالقصر. ومهما كان شكل أو عمر هذا الابن العم، فستكون زوجة وفيه له. وهذا يعني أن تحذر من الوقوع في حب رجل آخر. لكن من المؤسف القول انها وقبل أن تتعرف على مارك، وجدت نفسها تقع في حب كريستيان تريفور الجذاب. هل تظل وفيه لوصية جدها أم تقرر بنفسها مصيرها وتقول

١ - متى تكبر الطفلة!

كانت داماريس ترهران، من بلدة رافنسكراج في مقاطعة كورن رابل، آخر نسب مباشر للسير هيوغ ترهران، الذي كان الشخصية المرموقة على المسرح المحلي لأكثر من نصف قرن. مات والداها وهي طفلة، وربتها السيدة غارث المربية ومديرة المنزل، الأرملة، التي كانت تدير المزرعة منذ وفاة زوجة السير هيوغ، التي لا تذكرها داماريس كثيراً، يساعدها عدد من المربيات، كانت هيلين كارو آخرهن وأكفاهن، وكانت أيضاً الوحيدة التي اكتسبت ثقة تلميذتها.

كانت هيلين كارو، الحازمة والفخورة بنفسها، قد تعلمت على الدوام حكمة إبقاء أرائها لنفسها، في منزل مخدمها، ولكن شروط سيدها المتوفي، جعلتها تخرج عن تحفظها، إضافة إلى أنها قد أصبحت الآن دون عمل، فعلمت قائلة:

- إن هذه الترتيبات هي أكثر ترتيبات منافية للعقل سمعتها في حياتي! ورمقها المحامي، البرث بريستون، المتحفظ والمتزن، بنظرة عصبية، وخلع نظارته وبدأ بتنظيفها. وقال ببرود:

- ما من شك أن عميل المرحوم، ظن بأنه يضع شرطاً حكيماً للفتاة، ولكن آراءه كانت غير ملائمة، على كل لا حاجة بك لأن تتضايقي، فانا أشك في أن

تكون هذه الفقرة من الوصية ملزمة لأي طرف من الأطراف المعنية.
وأعاد وضع نظارته على أنفه، وحقق بالشخص المعني. كانت داماريس ترهران جالسة شبه يائسة عند حافة النافذة، حيث تشرق أشعة الشمس عبر الزجاج المغلق لتشع كالنار على الشعر النحاسي اللون الذي يتموج حول وجهها الصغير الشاحب، ذو العينين الواسعتين بلونها الأخضر والرمادي الغريب، تلمعان كالذهب، وكأنها عينا قطة. وبدت في ثوبها الأسود البسيط كطفلة، وشك السيد بريستون في أن تكون معاني ما قاله لها قد شقت غلاف الحزن الذي يحيط بها.

أكثر ما كان يشغل حياة داماريس هو جدها، فقد كانت رفيقته الدائمة منذ أوائل عمرها، وعلمها ركوب الخيل والسباحة، وغرس في نفسها شعور الحب لأملاك المقاطعة التي ولدت فيها، وفولكلورها وتقاليدها، التي ارتبطت مع تاريخ عائلتها.

والبارون أصبح مع تقدمه في السن منعزلاً تماماً. كتبه، وكلايه، وخيوله، ورفقة حفيدته أصبحت كل ما يرتضيه. وبقي سليم الصحة والقلب إلى أن أصابه المرض الأخير، وكان من الممكن أن لا يكون هذا المرض قاتلاً لو أنه اعتنى بنفسه، ولكن السير هيوغ كان يحتقر دوماً المرض الجسدي ويرفض أن يدلل نفسه، وفي النهاية انهار فجأة، وأصابته جلطة دموية أودت بحياته، تاركاً وراءه فتاة وحيدة يائسة صغيرة السن.

ولم تكن داماريس بعد قد أدركت مدى خسارتها. فموته الفجائي، ومراسم الدفن التي تبعته والتي شهدها حشد من الغرباء، رغبتوا في تكريم ذكرى البارون الذي كان يتجاهلهم في المرحلة الأخيرة من حياته، كل ذلك بدا وكأنه

غير حقيقي. حتى جهود السيد بريستون لشرح ما توصلت إليه حالتها كان يبدو أيضاً بعيداً عن الواقعية. ففي الواقع كانت تعرف أن السيد هيوغ قد ترك المزرعة لحفيد أخيه والذي سيرث اللقب على أية حال، كما أخبرها المعجوز بنفسه، وكانت تعرف أيضاً بموضوع الشرط المرتبط بالوصية والذي أغضب مربيتها، مارك ترهران ينتمي إلى فرع من العائلة استقر في اميركا الجنوبية، وكان السير هيوغ قد فقد الاتصال بهم.
وقالت بشيء من التوتر:

- لقد قال جدي إن المزرعة ستبقى دائماً منزلي...

كانت تحب ذلك المكان، فهو كل عالمها منذ أن فقدت والديها.

وحقق السيد بريستون بعصبية إلى هيلين كارو، وسعل سعلة خفيفة وقال:
- كان السير هيوغ يأمل أن يستمر الوضع على ما هو عليه... لذا.. وضع هذا الشرط الغريب.

كان قد احتج على هذا الشرط عندما كان يكتب الوصية مع السير هيوغ، ولكن السير هيوغ أصر على أن يحصل وريث اللقب على المزرعة، وبما أن داماريس تحتاج لحماية، فإن أفضل شخص يمكن أن يوفرها لها هو زوجها. لذا فقد ترك المزرعة لمارك ترهران شريطة أن يتزوج داماريس.

وقالت داماريس بطريقة طفولية:

- آمل أن لا يمانع ابن العم مارك في الزواج مني.

ونظر السيد بريستون إلى وجه الفتاة الأبيض بعطف. لقد كان السير هيوغ غطئاً، كما اعتقد، بإبقائها معزولة في تلك المقاطعة، إذ لم يكن مدركاً أن الرجل المعجوز كان يشمئز من نماذج الشبان «المودرن» الذين يرتادون الريف

الغربي أيام الصيف، ولم يقدر أبداً على تصديق أن خلف زيهم الغريب، لا تزال القيم الأخلاقية موجودة، كان يؤمن بأن الشبان هذه الأيام منحطون، أخلاقهم سيئة، وغير منضبطين، لذا لم يكن يسمح لداماريس بمخالطتهم، حتى عن طريق الذهاب إلى المدرسة، حتى أنه لم يكن يشجعها على قراءة الجرائد. وعندما تعاقدا مع هيلين كارو، قال لها إن حفيدته، يجب أن تتعلم لتصبح «لايدي» وأن تبقى بعيدة عن كل تأثير مفسد، بعد ذلك أدرك متأخراً أنها عديمة الخبرة لمواجهة الدنيا فأورثها لوريثه، وهو واثق أن مارك سيعتني بها. وقالت هيلين بغضب مجيبة على كلام داماريس:

- لقد تلقى رشوة ليتزوجك، فالزرعة هي مكان قديم رائع، وتاريخها الأثري سيروق لأميركي.

واستدارت إلى المحامي وأردفت:

- ربما يكون مرتبطاً الآن؟ فمن غير المحتمل أن يكون رجل في عمره لم يفكر بالزواج بعد.

وقال السيد بريستون بإقتضاب، دون أن تعجبه كلمة «رشوة». «السير مارك غير متزوج» وجفلت داماريس من استخدام له للقب الذي كان لجدها، بينما تابع هو «وليس لدي أي فكرة عن عمره. لقد أبقى يقول إنه يأسف لعدم تمكنه من حضور الجنازة. ولقد أطلعت على شروط الوصية بالطبع والباقي عائد له».

وقالت هيلين «لقد كان السير هيوغ كريماً جداً معي» فقد ترك لها مبلغاً محترماً من المال قد يمكنها من تحقيق حلم قديم لها، بمشاركة صديقة لتأسيس محل لبيع الهدايا، ولكنها قد تؤجل الفكرة وهي سعيدة إلى أن تتأكد من أن

مستقبل داماريس مؤمن بشكل مريح، وتابعت تسأل «لن تحصل داماريس على شيء مخصص لها إذا رفض سير مارك تطبيق هذا الشرط السخيف؟».

- سيكون لها مدخول بسيط من حصة أمها، وسيصبح المبلغ كاملاً لها عندما تبلغ الواحدة والعشرين وحتى ذلك الوقت، فالسير مارك وأنا وصيان عليها.

ونظر ثانية إلى الفتاة الجالسة قرب النافذة وسألها:

- كم عمرك الآن يا عزيزتي؟

- ثمانية عشر.

- حقاً؟ كم تمر السنين بسرعة!

كان يظن أن عمرها حوالي خمسة عشر، وتساءل عما سيفعله بها السير مارك. فقد سمع إشاعات حوله، لقد لفت الأنظار إليه في باريس ومونت كارلو عندما زار أوروبا. فأعماله في الأرجنتين يبدو أنها تدر عليه المال الوفير. ويجب إيجاد تسوية ما، لأن هذا الرجل المتأنق المعروف في العالم، لا يبدو مناسباً لهذه اليتيمة الصغيرة الشاحبة التي تجلس عند النافذة وبدأ يشك أن شرط السير هيوغ قد يصمد أمام أية محكمة. وقالت هيلين وهي تشعر بالراحة:

- وبعد ذلك تصبح مستقلة، ولا حاجة لها أن تفني بذلك الشرط السخيف.

وضغطت داماريس على شفيتها وقالت:

- لقد قال جدي إنني يجب أن أتزوج ابن عمي مارك.

فردت عليها هيلين بحدة:

- أنت صغيرة جداً للتفكير بالزواج.

- أنا في الثامنة عشر، ويجب أن أحقق رغبات جدي.
وتبادل الرجل والمرأة النظرات، وهز المحامي كتفيه قليلاً، فقد بسبب عناد داماريس بعض الصعوبات. فقال وهو يغلق حقيبته:
- حسناً. سوف ننتظر تعليمات السير مارك. فقد تأخذ إجراءات تنفيذ الوصية وقتاً.
والتفت إلى هيلين وتابع:
- هل ستبقين هنا يا آنسة كارو، الى أن نحصل على مالك؟
- سأبقى مع داماريس طالما هي تحتاجني.
وسألت داماريس بلهفة:
- هل سيأتي ابن عمي مارك قريباً؟
- أمل هذا، فنحن بحاجة لاستشارته. أما الآن فلا حاجة بك للقلق يا عزيزتي. فانا متأكد أن كل شيء سيكون على ما يرام.
كان يريد أن يكون كلامه مطمئناً، ولكنه كان يتوقع العديد من الصعوبات، ولم يكن يعرف بأن داماريس لم تكن قلقة البتة. فقد أحبها جدّها وحماها، وبحكمته الثاقبة تركها لابن عمها مارك، وهو متأكد أنه سيحبها أيضاً ويحميها، كان الأمر بهذه البساطة عندها.
وبينما هو يصفح اليد السمراء التي مدتّها داماريس له كان في قرارة نفسه يلوم موكله الراحل لأنانيته في عدم إرسال داماريس إلى المدرسة ومن ثم إلى الكلية، وتركها تنمو بشكل طبيعي. وأدرك الآن، وهي تقف الى جانبه، بدھشة أنها قد أصبحت بطوله تقريباً، السذاجة البريئة في عيني هذه الفتاة، أثرت عليه، ودخلت رأساً الى قلبه، مثيرة فيه إحساساً بالشفقة.

- سأكون هنا لأعتني بك. اتصلي بي عند أية مشكلة تصادفينها. وتذكري أنني واحد ممن يجب أن تثقي بهم... هل ذكر لك جدك من قبل... مشروع الزواج هذا؟
- اجل عدة مرات، ولكن مؤخراً.
قبل وفاته بعدة ليال، كان قد قال لها شيئاً حول مستقبلها.
- لن أعيش أكثر من هذا يا داماريس. ولكن لا تقلقي حول ما قد يحدث لك. فقد حضرت للأمر.
وبكت يومها لأنها لم تكن تتصور أنها تتحمل الحياة من دونه، ويجب عليه أن لا يتكلم عن الموت. فأسكتها بلطف وتابع:
- كما تعلمين... اللقب سينتقل إلى الوريث الذكر، وهو ابن عمك مارك. وحامل اللقب يجب ان يعيش هنا، والمكان يحتاج إلى رجل يديره، اذ انه شيء أنني قد أهملته في المدة الأخيرة، ولكنك لن تخرجي منه، وانا أعلم أنك تحبين المزرعة. والحل هو أن يتم الزواج بينك وبين مارك. سأكتب له وأطلب منه القدوم للسكن هنا، وسنناقش الأمر معاً.
لم يكن قد أخبرها في السابق أي شيء عن اقربائهم في اميركا الجنوبية، ولكنه تلك الليلة أخبرها الكثير. كان شقيقه الأصغر، قد ذهب الى هناك سعياً لتأمين مستقبله في العالم الجديد، وتزوج امرأة ثرية، واشترى مزرعة في الأرجنتين.
- والداك كانا مسافرين لرؤيته عندما قتلّا، حتى يوم مقتلها كنت أمل بحفيد. والتقيت بأخي في الجنازة. كان شاباً مكتملاً، ولكنني لم أحب زوجته الأرجنتينية. ولم اشاهدهما منذ ذلك الوقت، وقد توفي هو الآن ايضاً، ولهذا

سيكون اللقب من نصيب مارك. ولا أعلم إذا كان هناك غيره، أعتقد أن هناك فتاة، ولكن مارك هو من يهمننا، ولا بد أنه أكبر منك سنًا، لأن والده تزوج في سن مبكرة، وقد حان الوقت للتعرف عليه. ولكن الوقت لم يسعفه، فقد انتظر السير هيوغ طويلاً ليفكر بالأمر. وبعد أسبوع توفي.

عندما اعترفت داماريس بهذه المعلومات أصدرت هيلين حركة تنم عن الائمة.

- لم تقولي لي هذا أبداً يا داماريس.

لو أنها علمت لكنت تناقشت مع العجوز.

- أنا.. لم أرغب في التحدث بالأمر... لم أحتمل التفكير بأن جدي سيموت، ولكنه قال إن ابن عمي سيأتي للعناية بي حتى لا أكون وحيدة. وقال إن بإمكانه مواساتي.

وفكر السيد بريستون في نفسه أن هذا قد يكون آخر شيء من المعقول أن يفعله البارون الجديد. فما قد يحتاجه، زوجة مثقفة تدير له منزله الرائع وتتصرف كمضيفة أمام اصدقاءه، وليس فتاة لا تزال قيد النمو قد تحتاج الى صبر لا حدود له والكثير من الفهم قبل أن تصبح مناسبة لملء المركز المطلوب منها، ولكن شيئاً من هذا لم يظهر على وجهه بينما كان يربت على يدها.

- وداعاً يا عزيزتي... سأراك ثانية عما قريب.

- شكراً لقدومك وشرحك كل شيء لي.

ورافقته هيلين إلى السيارة، واستغلت الفرصة لتسهب في التأكيد عن

مشاعرها حول الوضع. كانت امرأة وحيدة، بسيطة في أواسط عمرها، تركز كل عاطفتها المحرومة على من ترعاها، وكانت مرتعبة من المآزق الذي وقعت فيه الفتاة. وأشار المحامي إلى أن ذلك الشرط في الوصية لا حاجة لأن ينفذ إذا استطاع الفرقاء التوصل الى تسوية قد لا تشتمل على الزواج.

الفتاة تبدو وكأنها راغبة بما فيه الكفاية، ولكن ردة فعل السير مارك لا يمكن التنبؤ بها. ولكن هيلين استمرت بالشعور بالسخط لأن داماريس يجب أن تسلم مع الممتلكات وكأنها رزمة من البضائع. وكانت مقتنعة أن المالك الجديد إذا وافق على الزواج من تلميذتها فإن ذلك سيكون لتقوية وضعه ولقبه في الأملاك، والأكثر من هذا، مارك ترهران كان نصف اميركي لاتيني، الأمر الذي يجعله موضع ريبة، واللاتينيون مشهورون بأنهم غير أهل للثقة مع النساء. وحاولت أن تشرح شيئاً من هذا لداماريس ولكنها وجدت أنها تواجه جداراً من حجر.

فقد كانت الفتاة تفكر بابن عمها، وكأنه نسخة شابة من جدها. وهي تعرف أن الزواج يلزمه أكثر من العاطفة الأبوية، ولكن بما أن مارك كان من الواضح أنه في أواسط عمره تقريباً، فقد تصورت أنه قد تجاوز مرحلة الغراميات، وكل ما قد يرغب به هو الرفقة التي كانت تعطىها للرجل المسن. وكانت تحب منزلها بشغف، ورغبة جدها كانت مقدسة لها، لأنها آخر رغبة أظهرها. لذا فقد كانت غير متقبلة أبداً للتلميحات والإشارات التي قامت بها هيلين.

ولم تستطع هيلين قول المزيد، ولكنها املت بشدة، أن لا تتألم داماريس كثيراً عندما يحضر مارك.

ومرت الايام، وتأخر وصول مارك ترهران، وفي أثناء ذلك، بدأت داماريس تشفى من أثر الصدمة لوفاة جدها. كل عصا وحجر في الممتلكات كانت تعيد ذكرها، وأخذت تتجول لوحدها أو مع الكلاب، أو تركب مهرتها البنية «شيبا» وتجول في كل بقعة مفضلة، بدت لها وكأنه فيها معها. وغالباً ما ظنت، في لحظة جانبية من عيناها، أنها لمحت، الطيف الطويل النحيل لجدها والشعر الأبيض الكثيف والعينان السوداوان اللامعتان، ولكنها عندما تلتفت، كانت تدرك أنه غير موجود بجسده، ولكنها كانت متأكدة أنه معها بروحه، وهذه الفكرة كانت تربحها.

كانت شخصاً مألوفاً لدى سكان المزارع والاكوخ، الذين راقبوها تنمو من طفلة تتدرج في مشيتها إلى أن أصبحت في سن المراهقة، وكانوا يجيئونها بحرارة دوماً. لقد كانت ودودة معهم ولكن دون إلفة، كانت تنظر اليهم على أنهم شعبها، مدينة لهم بالمسؤولية. وكون ابن عمها مارك سيرتهم، أمر صعب عليها لتقبله، ولكنها كانت مصممة على أن لا تدعه يفتصب مكانتها بينهم. مزرعة رافنسكراج كانت منزلاً حجرياً رمادياً منخفضاً له سقف قرميدي، بني في أحد أطراف الريف، حيث كان مغمياً من الريح الغربية العاتية التي تهب رأساً من الأطلسي. حوله تتصاعد المنحدرات من الوادي الصغير، وعلى قممها بيوت المزارعين، وتحت الحديقة يجري جدول صغير على طول أرض الوادي، وكان ضيقاً جداً للدرجة أنه يبدو كساقية ما بين التلال، يصل إلى شق، طويل ووعر ينتهي به إلى ساحل لا رمال عليه، تحيط به يافطات تحذر من خطر السقوط فيه.

وكانت داماريس، الخبيرة كالمعزاة، قد وجدت طريقاً سريعاً يوصلها إلى الشاطئ المهجور. وعندما تصل إلى تحت الجدار الرمادي للشق، تجلس ساعات وهي تراقب المد يغمر ببطء الصخور المدبية، والتي تمتد إلى داخل البحر، وبينما هي تجلس هناك لتحلم كان كلبها يتصيدان بمرح ودون نجاح أعشاش النورس. كانا أسودان من نوع اللابرادوس، يدعيان تريستان وايسولد وكانت تختصر اسمهما بتريس وسول. سمتهما هكذا عن اسمين من أفضل القصص لديها ايسولد أحبت الفارس الشاب تريستان الذي أتى بها من أيرلندا نتيجة شربه لترياق للمحبة كانت تقصد إعطائه لزوجها الملك مارك ونهاية المساء لها روايات كثيرة كانت تعرفها كلها، إذ كانت تقرأها باستمرار.

في أحد الأيام كانت تجلس في مكانها المعتاد وقد استغرقت في افكارها، استفاقت فجأة، على صوت تساقط احجار، تبعه نباح مسعور من الكليلين. فقفزت واقفة على رجليها، لتشاهد شخصاً يحاول هبوط المنحدر وانتهى به الامر إلى الانزلاق بقوة على الحصى، بينما كان تريس وسول ينبحان على الجسم الممدد باهتياج.

أول ما شعرت به كان الانزعاج لاقتحام خلوتها، ثم أدركت انها إذا لم تتدخل فقد يقوم الكلبان بالإضرار به، فأسرعت للنجدة.

- تريس، سول اجلسا!

وبتردد تخل الكلبان عن نباحهما وجلسا وعيناهما القلقتان مثبتتان على الدخيل. ونظرت داماريس الى جسد شاب طويل، يحاول بصعوبة أن يرفع نفسه.

- هل اصبت بأذى؟

وكافح ليجلس، ونظر إلى نفسه، كان جسمه مليء بالغبار، وقميصه الأزرق ممزق في عدة أماكن، ولكن الشورت لم يكن ممزقاً.
- لا.. لا أظن ذلك، ولكنني اعتقدت ان هذين الشيطانين الاسودين سيفترسانني.

كان صوته مرحاً، حتى عندما بدا جاداً، ولكنه في تلك اللحظة كان بعيداً عن الضحك، فقد كان يعبس في وجه الكلبين، اللذين كانا يمدان لسانها الاحمر، ويستمران في التحديق به برية. وشاهدت داماريس امامها وجهاً نحيلاً اسمر، له أنف معقوف يعلوه شعر اسود كثيف. وقالت له:
- لن يعضاك حقيقة، ولكنك تعديت على أملاك الغير كما ترى.
- أوه... هذه سخافة..

ونفض على قدميه بحركة سريعة رشيفة.
ونظر اليها. ولاحظت أنه أطول منها بكثير، بطول جدها تقريباً، وزلقت رجله ثانية على الحصى وبينما هو يسعى لثبيت وقفته، بدأ الكلبان بالنباح ثانية. فقال:

- أرى انك محروسة جيداً. ولكن هل لي ان أوضح لك ان كل هذه المرتفعات الصخرية من الأملاك العامة؟

- ليس هذه التي تحت ارض رافنسكراج ولا احد يأتي الى هنا أبداً، وليس هناك سوى ممر سري. والشاطئ كله صخري. ألم ترى إشارات التحذير؟ فضحك. وبدت أسنانه شديدة البياض في وجهه الاسمر. كانت ذراعاها وساقاه بلون البرونز ايضاً، ولاحظت عليهم عدة خدوش. وبغطرسة،

وبطريقة منهورة، انعكست في صوته قال:

- انا لا أنظر أبداً إلى إشارات التحذير. فأنا اعتبرها تحدياً لي.

- هذا غير حكيم في مكان كهذا. فهذه المنحدرات هي خطرة حقاً فالصخور هنا تنهار.

والنفت لينظر إلى المنحدر الرمادي خلفه حيث ينتشر عليه ركام الحجارة المتساقطة تحوم فوقها العصافير والنورس.

- هكذا، فهمت.. ولكن كيف وصلت أنت إلى هنا؟

واخذت عيناه تتجولان بها، ودهشت عندما رأت أنها زرقاوان زاهيتان، متباعدتان مع حاجباه السوداوان، ومحاطتان بأهداب سوداء طويلة. وحدث بجسدها التحيل، ويذراعاها وسيقانها، ثوبها الاسود، واللون البرونزي الذي يحيط بوجهها الصغير، وأخيراً التفت عيناه بعينيها وتوقفت، وأحست فوراً بساقيها النحيلتين، وبقدميها الخافيتين، بعد أن خلعت حذائهما. وفي أعماقها تحرك شيء... أول شعور لها بأنها أنثى... وتابع كلامه:

- ربما، تسكنين هنا؟ هل أنت مخلوقة بحرية.. ماذا كان القدماء يسمونها.. حورية، وحدها الحورية، او ساحرة البحر يمكن أن يكون لها هذه العيون الغريبة.

كان صوته منخفضاً ناعماً وعيناه فيها مغزى، ونظرته جذابة. وتصاعد اللون الى وجهها، ويجهد أدارت رأسها عنه، لتتنظر الى البحر.

- أعيش في رافنسكراج. وهناك ممر في المنحدر إلى هنا، لا يعرفه سوى جدي وأنا.

- وهل جددك هنا معك؟

- لا، لقد مات.

- انا آسف... وهل كنت تسكنين معه؟

- أجل، كان كل عائلتي.

- أيتها الطفلة الصغيرة المسكينة!

- أنا لست طفلة. انا داماريس ترهران.

وحقق بها الغريب غير مصدق:

- داماريس ترهران؟ أنت تمزحين؟

- لا لست أمزح! السير هيوغ ترهران جدي.

ولكن بالطبع أنت زائر، ولم تسمع بعائلة ترهران.

وأطلق صفيراً منخفضاً، وجالت عيناه فيها من خديها البرونزيتين إلى قدميهما الخافيتين، بدهشة ظاهرة.

- داماريس ترهران... اللعنة عليّ. آسف، لم اقصد أن اكون فقطاً. لقد

سمعت بعائلة ترهران، في المزرعة حيث أقيم. الجميع يتحدثون عن وفاة السير هيوغ المفاجئة. ولكن مما سمعته اعتقدت أن الأنسة داماريس كبيرة ناضجة وهي «الليدي» في المزرعة.

- أنا ناضجة... عمري ثمانية عشر. هذا الثوب أصبح قصيراً عليّ...

وأنا... أنا... أردت أن ارتدي ثوباً اسوداً، ولكنني أبدت مختلفة عندما ارتدي ثياباً أنيقة. وبالطبع أنا لا ارتدي أفضل ثيابي وأنتزه مع الكليين على الشاطئ.

- طبعاً... واعتذر مرة أخرى. وأنا متأكد أنك تبدين أكثر جاذبية عندما... تكونين مرتدية ثيابك اللاتفة.

ولم تحب لهجة كلامه، فقد شكّت في أنه يسخر منها. ألا يزال لا يصدقها؟ وتابع التفرس بها بدهشة حتى أنها بدأت تغضب، وبينما هي تفتش في غيلتها عن كلمات لتضعه عند حده، فمع كل ما قاله وما فعله لا يزال دخيلاً على أرضها. ونجح تريس، بعد أن شعر أنه جلس هناك لما يكفي، وأن سيدته نسيتهما، وقد ظهر غراب كبير على مقربة منه، ولكن الكليين كانا مدربين جيداً بحيث أنهما لا يتحركان إلا بإذن. وأمرتهما داماريس «هيا... اذهبا من هنا». وانصرفت سول بعيداً كالسهم، وكأنا شهاب أسود عبر أشعة الشمس، بعد أن شاهدت الغراب يطير، ولكن تريس المتيقظ أكثر تمهل وهو يرقب الغريب بريية. فقالت له داماريس:

- إنه صديق يا تريس.

ومد الرجل يده إليه مشجعاً «تعال هنا». ولكن تريس أخذ يشمها بريية، ولكن الغريب لم يتقدم ولم يتأخر. واستمر تريس بالشمشة، وشمل تفحصه الحذاء والساقين، ثم اكتفى، وحرك ذيله ببطء ثم ازدادت حركته، ثم لعق الأصابع السمراء الممدودة إليه.

- ماذا دعوتيه؟ تريس؟ إنه اسم غريب لكلب.

- إنه اختصار اسم تريستان وزميلته اسمها إيسولد اسمها مأخوذ من قصة واغتر.

- أجل أعرف القصة. المكان هنا مليء بالأساطير عن الملك آرثر. تتناغل ليس هذا اسم المكان الذي كان فيه قصر الملك مارك، نصفه في البحر ونصفه

على اليابسة. تاج من البروج... يجب ان أزور هذا المكان.

- لم يعد هناك بروج.

كانت نصف مأخوذة ونصف نافرة من رفيقها. وكانت على وشك ان تساله عن اسمه، عندما لاحظت جرحاً على ذراعه يتزف.

- أنت مصاب... هناك دم على ذراعك.

فنظر الى الجرح دون اهتمام وبدأ يمسح الدم بمنديله. وراقبت داماريس ما يفعل على كره منها.

- يجب أن تعتني بالجرح... سادلك على الطريق ثم نضع لك كاري ضمادة عليها.

- إنه جرح طفيف - سأغسله بماء البحر إنه مطهر فعال كما تعلمين.

- اجل ولكن هذا سيجعل الجرح يؤلمك.

وانحنى نحو فتحة بين الصخور ملأها المد بماء البحر، واثبتت تكشيرة الالم على وجهه صدق تحذيرها. وقال لها وهو يتابع عمله:

- من هي كاري؟

- إنها الأنسة كاري، مربيتي، أدعوها دائماً كاري.

ونظر اليها ولمعت عيناه.

- يا إلهي، وكأنك من العصور الوسطى! لماذا لم تذهبي إلى المدرسة؟

- ليس هناك مدرسة مناسبة في الجوار وجدي لم يرغب في مفارقتي، إضافة

إلى أنه... أنه لا يوافق على تصرفات الشبان العصريين. قال ان ليس لديهم اخلاق ولا مبادئ، او شعور بالمسؤولية.

وبدأت تسرد آراءه بمزيج من التزمّت والتأكيد. من الواضح أنها تؤمن بصدقها تماماً. وجلس الرجل وهو يراقبها بينما كانت تتضح أمامه صورتها

الطفولية. لقد ربيت وكأنها راهبة صغيرة.

- لا بد أن جدك كان محافظاً متطرفاً، ولكن هذا لا يعطيه الحق بأن يتركك في جهل مطبق.

- ولكنني لست جاهلة... كاري معلمة جيدة وعندها كل أنواع الدرجات العملية والأشياء الأخرى. إنها تقول انني متفوقة في التاريخ، واللغات، والانكليزية ولكن ليس في الحساب، إنه نقطة ضعفي.

- نادراً ما تكون النساء بارعات في الحساب. فالأرقام تستوجب المنطق. وأين المرأة من المنطق؟ ولكنني لم أكن اشكك بقدرتك العلمية، يا طفلي، ما كنت اعنيه أنك تعرفين أكثر بكثير عن الانكليز القدماء مما تعرفينه عن الجنس البشري.

- أعرف كل شيء عن الجنس البشري.

- أي أنك تعرفين أنني كائن بشري، كائن عصري، وأنني أمثل سلالة عصر، أبعدوك بكل عناية عنه.

وجفلت، لم تعرف ما إذا كانت فظة معه ام أنه يسخر منها، فقالت:

- لم أقصد أي شيء شخصي...

- أنا متأكد من هذا... حسناً هل اعطيك انطباعاً بأن لا أخلاق عندي، أو

شعور بالمسؤولية، او مبادئ؟

ووقف، وفتح ذراعه ونظر إليها، داعياً اياها لتفحصه. وقامت بحركة ارتباك بيديها.

- وكيف لي أن اعرف؟ لم أعرفك سوى من خمس دقائق ولا أظن أنك مؤدب لأنك تحاول تحوير ما أقول.

وضحك بمرح... فهذه الغريبة لديها شخصية!
 - ألم ترغبى أبداً بالثورة على هذا الوضع.
 - ولماذا أنور؟ لقد كنا سعيدين معاً، جدي وأنا. لم تكن نرغب بأحد معنا.
 وارتعدت شفتاها وادارت وجهها بعيداً حتى لا يرى دموعها. وقال بلطف:
 - والان... ماذا ستفعلين بحياتك؟
 - لا شيء، أنا بانتظار ابن عمي مارك.
 - فعلاً؟ ومن هو ابن العم مارك؟
 - مارك ترهران، إنه البارون الجديد. إنه في أميركا الجنوبية، وأنا مخطوبة
 له.
 - أنت ماذا؟
 - مخطوبة لآنزوجه، كان هذا ضمن وصية جدي.
 - يا إلهي العزيز!...
 وبدا مأخوذاً بالدهشة حتى أنها حدثت به باستغراب وبدا يقول:
 - ولكن طبعاً...
 وتوقف، وتفحص نفسه، وابتسم لها ابتسامة جانبية، وتابع.
 - لقد قابلت خطيبك، طبعاً؟
 وهزت رأسها بالنفي ولا... أبداً.
 - يعني أنك تقولين إنك قبلت أن تُخطبي إلى شخص غريب تماماً؟
 - إنه ليس غريباً، إنه من العائلة. شخص له نفس اسمي لا يمكن دعوته
 بالغريب...
 ٢٢

قالت هذا مدافعة عن مارك كما دافعت عنه أمام هيلين، ثم تطلعت إليه
 دون أن تثق به وتابعت:
 - ولكنك لن تفهم. فقد قال جدي إن الناس هذه الأيام لا يؤمنون
 بالتقاليد.
 وابتسم ثانية، وكانت ابتسامته هذه المرة كاملة وفاتنة. وقال:
 - ليس لهذه الدرجة... على كل المرء لا يتوقع من حورية أن تخطب
 لبشري. هل تخبريني عن الأمر؟
 وأشار إلى حافة صخرية وجلس، وجلست إلى جانبه قلقة قليلاً. وهي
 تجذب طرف فستانها بحذر نحو ركبتيها. كانت متشوقة لأن تروي قصتها.
 تستشعر بالراحة بأن تروي كل شيء. حتى ولو كان رفيقها حتى الآن لم يظهر
 أي تعاطف معها. وأنهت سرد قصتها بالقول:
 - وهكذا ترى أن من واجبي أن أتزوج ابن العم مارك.
 - كم هذا رائع بالنسبة له، ولكن يا طفلي، إنه وضع مستحيل. لقد
 أمضيت كل حياتك مسجونة هنا دون لقاء أحد من عمرك. وأنت جاهلة تماماً
 بالعالم وطرق العيش فيه. وليس عندك خبرة بالرجال أو النساء، بينما هذا
 المارك... هل تعرفين كم عمره؟
 - ليس بالضبط... ولكنني أعتقد أنه في أواسط عمره.
 - أوه!... ألا ترين، سيكون حقيراً لو أنه استغل جهلك وبراءتك ليلزمك
 بهذه الصفقة السخيفة كي يحكم قبضته على الأملاك واللقب.
 ٢٣

- ولماذا لا يحبني؟ هل أنا بشعة؟
- لا... فأنت بعيدة عن البشاعة، ولكن الحب لا يأتي بالامر، والزواج
المدير قد يكون كالجحيم.

وابتسمت مع قليل من الانزعاج وسألته:

- هل أنت متزوج؟

- لا سمح الله: فأنا أحب حريقي كثيراً.

- إذا، لا تستطيع أن تكون حكماً في المسألة، فأنت... أنت... آه...

وفشت في ذهنها عن كلمة مناسبة تصفه بها، وساعدها كثرة قراءتها
فقالت متصرة:

- انت عابث.

ويذل جهداً كبيراً ليخفي تسليته. ومال إلى الصخرة ورائه ونظر إليها
بكسل من خلال عينيه النصف مغمضتين، وفكر: إنها مشكلة لابن العم
مارك، ولكنها مشكلة لها مكافأتها إذا حُلَّت الغازها، ولو كان لديه الوقت
الكافي والصبر، هو شخصياً ليس رجلاً صبوراً. شيء ما في تعابيره جعل
دامريس قلقة قليلاً، فنفضت رموشها وادارت وجهها. وقال لها فجأة:

- اقبلي مني نصيحة... انسي كل شيء عن... هذا... الابن العم
المسن، واخرجني للعالم وامرحي مع شبان من عمرك، وأحيي شاباً طويلاً
الشعر، يكون مثلك في عدم الخبرة.

كان في صوته رنة مرارة.

- ولكن ذلك يعني أن أترك رافنسكراج، وأنا لا اظن أنني قد أحب هذا
وابن العم مارك سيناسبني تماماً، إذا كان لطيفاً!

- لطيفاً... وهل اللطف هو كل ما تطلبينه من الزوج؟

- إنها ليست سخيفة أبداً، وأنا أحب الرجال الأكبر مني سناً.
- ولكنك لم تعيشي يا طفلي بعد، وهو قد يكون... عاش كثيراً جداً...
ويدت عليها الحيرة، وقالت:

- لا أعرف ماذا تعني، ولكن بالطبع جدي يعرف ما هو الأفضل لي، لقد
قال إن ابن عمي مارك سيعتني بي.

وتحرك رفيقها وقد بدا عليه قلة الصبر وسألها ساخطاً:

- إذا أنت تستعدين لأن يستلمك رجل عجوز من رجل عجوز آخر. ولا
حاجة بك لمن يعتني بك لو كنت فعلاً لم تنصحي بعد، كما وأنك امرأة راشدة
نقف على رجليها.

ودون شعور نظر كلاهما إلى قدميهما النحيلتين الخافيتين، بدتا رقيقتان
وطفوليتان، اصابعهما السمراء غارزتان في التراب، وأزعجه منظرهما فسألها
بقسوة:

- ألا ترتدين حذاء؟ قد تخرجين قدميك على الصخور البارزة.

- أوه... أجل، حذاءي هناك. ولكنني إذا لم أتزوج ابن العم مارك
سأضطر إلى ترك رافنسكراج وهذا ما قد يحطم قلبي.

- اعتقد أنه لم يظهر لك بعد أن ابن عمك قد يحطم قلبك؟

والتفت عيناها الخضراوان الرماديتان بعينيه بنظرة متحيرة.

- ولماذا يفعل هذا؟

- لأنه لا يحبك، وإذا تزوجك فبدافع الواجب فقط، فلا أمل لك
بالسعادة.

واتسعت عيناها من الفزع وقالت:

- إنه أكثر شيء له أهمية. أنا أرجو أن يكون مثل جدي، وأن أقدم له كل الأشياء الصغيرة التي كنت أقدمها لجدي.

- أن تملأي كيس مياه الساخنة، وتدفي له خفيه؟

والتقط حجراً وضربه بقوة على الصخور بحق ووحشية.

- يا الله... كم أنت لا زلت طفلة! ما تعانين منه حقاً هو حاجتك إلى أب أو بالأحرى عقدة الجد.

ونظرت إليه وهي لا تفهم شيئاً، لجهلها بالتحليل النفسي، ولكن ما قام به، لفت نظرها إلى قدوم المد فقالت له وهي تنهض على قدميها:

إذا كنت لا ترغب في أن تبذل، فالأفضل أن تذهب. سادلك على الطريق إلى فوق.

وتحركت لتستعيد حذاءها، ولحق بها. كانت ساذجة، عديمة الخبرة، حبها فقط لذكرى جدها يرشدها، ولذا كانت شديدة القابلية للعطب، ولم يشأ أن يززع إيمانها المطلق. إنها فتاة لطيفة، طفلة مسلية، وبالإمكان خداعها، ولكنها طفلة.

وصفرت داماريس لكليهما، فأتيا راكضان إليها استجابة لدعوتها، وبصمت سارت امامهما صعوداً في الممر الضيق، الذي قاد إلى درجات صعبة خلف صخرة كبيرة مخفية عن العيون إلا للمراقب الخدق. على قمة الصخرة اختفى الممر في غابة من الأشواك وشجيرات مزهرة، أراحته قليلاً لتكشف عن ممر أقدام ضيق، يتعرج عبر الأحجار المتساقطة من أعلى. وتابعت طريقها بثقة المتعود على الطريق، بينما يتبعها الكلبان. وذهنها يدور ويفكر.

لقد هز هذا الغريب ثقتهما بمستقبلها، هل صحيح أنها تنظر إلى مارك كنوع

آخر من جدها، يستلم أمورها من حيث تركها السير هيوغ، بينما قد يثبت أنه شيء مختلف تماماً؟ ربما يكون مثل هذا الشاب، ويظن أنها لا تزال طفلة تحت رعاية مربية، ولا تناسب أن تكون سيدة رافنسكراج؟ ثم تذكرت أن رفيقها ينتمي إلى جيل طالما حذروها منه، ولديه قيم مختلفة تماماً. وليس لديه أية فكرة عما تعنيه المزرعة وتقاليدها لها ولا بن عمها مارك، ورائة مشتركة، هي بمثابة رباط بينها. ومارك أيضاً قد لا يفكر في أن يخالف رغبات جدها، وقد يفهم بأنها لن تتردد بأن تفعل هذا.

لذا فإن الاقتراح بأن تخرج إلى عالم مجتمع الشباب العصريين، يشير رعبها، ومن الأفضل بكثير أن ترضى بابن عمها، وتأمل بأن يرفعها كما كان يفعل السير هيوغ.

آخر جزء من الممر انتهى إلى ما بين صخرتين شديدي الانحدار، ثم ظهر من طرف الشق، تحتها كانت المياه تغطي المكان الذي كانا يجلسان عليه، وامتد البحر لامعاً تحت أشعة الشمس إلى الأفق، حيث لا بد أن مارك سيأتي منه قريباً ليطالب بها.

وقالت وهي تشير عبر حقلين يقع المنزل بينهما أمام مجموعة من الأشجار: - منزلنا هناك...

وانطلق الكلبان وهما مسروران من نهاية تسلقهما للمنحدر نحو المنزل وتابعت قولها:

- هل ستأتي معي؟

- لا، شكراً لك. لقد تركت سيارتي بعيداً عن المزرعة، وأنا لست في حالة مناسبة للقاء... مريبتك.

ونظر إلى قميصه الممزق، فأسرعت تقول:

- أوه، كاري لن تمنع، فهي معتادة أن تراني عائدة وأنا في حالة مزرية، وستضع لك شيئاً على خدوشك.

- ولكنني لست أنت، وعندما أزور أحداً، أحب أن أكون مرتدياً ثياباً مناسبة، وأعتقد أن منزل المزرعة فيه رسميات، ويجب أن يُعامل باحترام.

وتنهدت «إنه ليس في حالته الرسمية هذه الأيام، لقد أصبح في حالة فوضى قليلاً، فالسير هيوغ في شيخوخته لم يهتم بإعادة ترتيبه، مفضلاً المحيط القديم الذي اعتاد عليه».

- حقاً؟ إذاً فالمالك الجديد أمامه عمل كثير ليشغله.

- أتمنى أن لا يغير شيئاً... سأكره هذا بالتأكيد.

- التغيير هو سنة الحياة. وستغيرين أنت أيضاً... فلا يمكن أن تتوقعي من مكنسة جديدة أن لا تنظف جيداً، وهذه الحقول هناك مُهملة وبحاجة إلى تنظيف وإعادة زرع.

كان وهو يتكلم ينظر من حوله بعين متفحصة وقد تركز انتباهه حيث ينظر، وجاء دورها لتفحصه من الواضح أنه يعرف شيئاً عن الزراعة، لا بد أنه مزارع، ولاحظت الآن أنه ليس شاباً للدرجة التي اعتقدتها. فهناك تجاعيد صغيرة حول فمه وعينه الزرقاوين. لا بد أنه أصبح اسماً تحت شمس أقوى من تلك التي تشع في بريطانيا، ربما كان يعيش في الخارج. وقررت أنه لا بد أن يكون في الخامسة والعشرين على الأقل، أي أنه يسبقها في النضوج. وعادت عيناه باتجاهها لتلتقيا بنظرها المتفحصة، وسألها «ما الأمر؟».

فأحمر وجهها وأحنت رأسها وقالت كاذبة:

- لا شيء، كنت أتساءل كم عمر ابن العم مارك بالضبط.

- اتخشين أن يكون في سن الحرف؟

- لا تكن سخيلاً، ولكن لا بد أنه فوق الثلاثين، وهذا سن متقدم، اليس كذلك؟

وضحك، وقال موافقاً:

- أجل، ولكنني أؤكد لك أن الرجال في الثلاثين أو الأربعين يبقون أقوياء.

- لقد كان جدي قوياً في السبعين من عمره.

- ليس بالطريقة التي عنيتها.

وتقدم منها وأمسك بذقنها ورفع رأسها إليه.

- انظري إليّ.

ورفعت ببطء رموشها السوداء الطويلة وكأنها مسيرة بفعل جاذب مغناطيسي لا تقدر على مقاومته، لتلتقي بنظراته. كانت عيناه أضيق من عينها، يحيط بها رموش، بنفس كثافة وطول رموشها، وتسارعت دقات قلبها، وشعرت بالدم يتصاعد إلى وجنتيها.

- لك عينا ساحرة، وستصيبين أحد مما بضرر من جرّانها قبل أن تدري... لقد بدأت أحسد ابن العم مارك.

وشعرت بمثل تيار كهربائي يسري فيها، ليتبعه رد فعل سريع، شعور عذري بالإساءة على أثر الغزل فدفعت يده عنها، وقد التمعت بعينها. وقالت:

- لماذا... لماذا تقول هذا؟

- إنه تشجيع لك، أردت أن أظهر أن هناك في الدنيا رجال غير جدك.

- حتى ولو كان هناك، فلا أريد معرفتهم!

فابتسم ساخراً وقال: «إذا سأذهب... وداعاً يا حورية!».

وابتعد عنها، مبتعداً فوق المرح، ووقفت تراقبه، وقد أربكها اضطراب مشاعرها التي أيقظها كلامه ووجوده، ولم تدرك، إلا بعد أن كان يتسلق المرتفع المقابل لها بأنه لم يخبرها عن اسمه. وفكرت أن الأمر غير مهم، فهي لن تراه ثانية، واستدارت نحو المنزل، وحاولت إقناع نفسها بأنها مسرورة أن الأمر انتهى عند هذا الحد، فهو لا يتناسب مع عالمها الصغير المغلق، فكللماته، وأفعاله، كانت مزعجة لها. وقررت أنه لم يعجبها. ولم تذكر الحادثة أمام هيلين التي قد تستهجنها. لقد حرّم عليها دوماً أن تتحدث مع الغرباء. وتلك الليلة حلمت أنها كانت معه ثانية على الصخور عند الشاطئ، وكان يوماً عاصفاً وكانت خائفة من البحر الهائج، إلى أن أخذها بين ذراعيه وهو يقول:

- لا تخافي، ستكونين دوماً بأمان معي.

وهذا الكلام طبعاً منافٍ للعقل، لأن مُحامتي الطبيعيين هم جدها وابن عمها، وليس ذلك الغريب أبداً.

بعد وقت قريب، عاد السيد بريستون لزيارة رافنسكراج، وأق معه بانباء مقلقة. فقد اتصل بالسير مارك ترهران، وقررا بينهما أن تمضي داماريس سنة في الخارج، في مدرسة لمرحلة نهائية في سويسرا، وكوصي عليها، وافق المحامي على الفكرة، فهذا ما تحتاجه هذه الطفلة تماماً، الرفقة مع الشباب من أمثالها وتعلم اللياقات الاجتماعية.

وعلفت هيلين كارو بشكل لاذع على الأمر، بالرغم من أنها وافقت كلياً عليه، قائلة:

- أي أنها ستعد لتصبح لائقة بالمركز الذي ستملأه يوماً؟

ورفعت حاجباها بالتساؤل في وجه الرجل، ولكنه قال دون أن يلتزم بتعليقها:

- من الممكن أن يكون كذلك.

وتلقت داماريس الخبر برعب وبثورة ظاهرة واحتجت قائلة:

- لن أذهب. ولا تستطيعون إجباري، سأكون بائسة بين العديد من الفتيات الغربيات.

وردت عليها هيلين:

- بالطبع ستذهبين، إنها خطة ممتازة، وستعلمك الوقوف على رجلك معتمدة على نفسك.

ونظرت داماريس إلى رجليها، ورأت مكانها، رجلين حافيتين وتذكرت صوتاً كسولاً ساخراً يقول لها «امرأة راشدة تقف على رجليها» ونظرت إلى السيد بريستون نظرة شك وقالت بغضب:

- أعتقد أن ابن العم مارك يظن أنني جاهلة وقليلة التجربة، ولن يتزوجني كما أنا.

وقال المحامي وهو يلطف من خاطرها «انت لا زلت صغيرة... وهناك وقت كثير قبل أن تأخذي قراراً حاسماً. وستجدين أن التدريب في المؤسسة سيفيدك جداً في المستقبل».

ولكنها، صممت على رأيها، وليس هناك أي خيار آخر. وأعطتها كتيباً أنيقاً يشرح الفرص التي ستتاح أمامها في أكاديمية مدام لوبرون للفتيات الشابات. وأخذته داماريس وألقته أرضاً وقالت له بازدراء:

- إذا كنت جيدة بما فيه الكفاية لجدي فأنا جيدة كفاية لابن عمي مارك دون تصنع.

شعرت بالآلم لأن خطيها لم يتصل بها بنفسه بل ترك كل الترتيبات للمحامي، الذي يبدو أنه لا يعرف حتى أين هو. وتهد السيد بريستون. فطبع آل ترهران الغاضب معروف جيداً في تاريخ مكتب بولدراك وبريستون للمحاماة، والذين أداروا شؤون رافنسكراج لعدة أجيال.

والتقطت هيلين الكتيب وقالت بغضب:

- لا تكوني سخيفة هكذا داماريس، أنت بحاجة لأن تتعلمي كيف تلبسين وكيف تكرمي الناس. هذا المكان هو أكثر من مدرسة. سوف يعدونك لحياة يتوجب على ليدي ذات لقب أن تعيشها. فالسير مارك لن يكون منعزلاً عن الناس كما كان جدك. سوف يتوجب عليك إقامة حفلات عشاء، وحفلات كوكتيل، وربما حفلات عائلية، أو أن تفتحي معارض، وأن تشاركي في الجمعيات.

كانت تسرد عن قصد كل الأمور التي تستطيع تذكرها على أمل أن تهول عليها الأمر. فقالت داماريس:

- أوه! أرجوك. كم هذا فظيع!

- سنة في الخارج ستعطيك الثقة بنفسك.

في سرها، كانت هيلين تأمل أن يكون السير مارك يسعى إلى طريقة للتخلص. واثنا عشر شهراً في سويسرا قد يؤخرون المسألة، وفي نهاية المدة، قد تصبح متشوقة لرفض الخطوبة. وهذا سيرك له مجالاً للتراجع بكرامة. وهو لم يقترح أن يقابل الفتاة، مما يشير إلى أنه غير متحمس للزواج. وشعرت داماريس بالإهانة من تنكره لها. فقد كان عليه أن يراها قبل سفرها إلى الخارج، ليعطيها الراحة والاطمئنان اللذان من المؤكد أنه يعرف بأنها تحتاجهما. وبرزت لها فكرة مخيفة بأنه بكل بساطة لا يهتم بها. واستيقظ فيها

الكبرياء، ستجعله يهتم بها، ستعود مترنة وأنيقة حتى ليضطر أن يعترف بأنها تشكل اللايدي ترهران المثالية.

- حسناً... سأذهب. وسأجعله فخور بي.

وقالت هيلين مستحسنة «هكذا تكون روح التحدي».

وتنهدت داماريس بوجل وقالت:

- ولكن الكلبان! لقد نسيتهما. لن يكونا سعيدين هنا من دوني. سيبقيان محبوسين معظم الوقت، وليس متعودين على الحبس. لا أستطيع أن أتركهما.

- سأأخذهما أنا...

على الرغم من أن هيلين تحب نريس وسول، إلا أنها ضخمين، وسيشكلان إزعاجاً لها في أملاك صديقتها المحدودة.

- أوه... هل ستأخذنيها يا كاري، وتأخذنيها ليمشيا كل يوم؟

- أجل... اطمئني من أجلهما.

وقالت داماريس، وقد أدركت الآن أن ليس أمامها مجال للتراجع «شكراً لك».

وقال السيد بريستون:

- السيد غارث سيعتني بالمزرعة، والسير مارك سيعين وكيلاً إلى أن يصل ويتولى أمورهما بنفسه.

وقالت لها هيلين:

- ماري وأنا سترحب بك جداً إذا احتجت إلينا.

قالت هذا لاعتقادها أن الحاجة قد تبرز يوماً ما. وماري بروك، هي صديقتها التي ستعيش معها ورثت داماريس، شيء من التحدي:

- شكراً لك، رافنسكراج ستبقى دوماً منزلي، وساعود لاتزوج ابن العم مارك.

وأجابتها هيلين بسرعة وأجل.. بالطبع.

وتبادلت النظرات مع المحامي، فكلاهما يشك بصحة هذا القول. ولكن داماريس لم يكن لديها شك أبداً حول مصيرها النهائي، كانت مقتنعة تماماً أنها ستعود لتصبح عروساً لابن العم مارك، الذي ستستعد له في سويسرا، دون ان يكون قد وقع نظرها على زوج المستقبل.

٢ - احذري من الغريب!

مدام لوبرون، تدعي أنها سليلة مدام فيغي لوبرون التي كانت رسامة بلاط ماري انطوانيت. مثبتة هذا الأمر بمذكرة الامتياز الضرورية لتكون رئيسة اكاديمية الفتيات الشابات الباهظة التكاليف. وهذه الاكاديمية تقع في ما كان قديماً دير قديم على شاطئ بحيرة ليمان، غير بعيد عن جنيف. وتستضيف بنات الأثرياء، اللواتي يرغبن في أن يصبحن مؤهلات لدخول عالم الشراء والأزياء، وتلميذاتها كلهن من الشابات الصغيرات في أواخر مراهقتهن اللواتي يمررن في مرحلة الإعداد للحياة الاجتماعية.

منهاج الدراسة يركز على اللغات، والسلوك، والرقص، وعلى رياضات يكون العلم بها له فائدة اجتماعية. ترتدي الفتيات خلال النهار تنانير وبلوزات بسيطة، إذا لم يكن في لباس الرياضة، ولكنهن يرتدين ملابس لائقة للعشاء الرسمي في الأمسيات، كجزء من تدريبهن على الاتيكيت، ولا يجري تجاهل الجانب العملي. وتتعلم الفتيات كيف يضعن ألوان الطعام، وأشياء أخرى مثل الشرب المناسب لكل مناسبة، وبالطبع كيفية التصدر في المجتمعات المخملية. كان في استقبال داماريس ترهران على المطار سيارة المدرسة، بحضور مربية. ونزلت من الطائرة تحمل حقيبتها اليدوية وهي تشعر بالخوف. حقيبتها الأخرى، والتي كانت تحتوي على عدد كبير من الملابس حسب القائمة التي

أرسلت إلى هيلين، كانت قد سبقتها. وشعرت داماريس بالخجل والإرباك ولم تتمتع برحلتها الجوية الأولى. السيدة التي قدمت لتستقبلها، تطلعت إليها بلهفة. فالوصف الذي أعطته مدام لوبرون عن داماريس جعلها تعتقد أنها فتاة مستهترّة، ولكنها بدت هادئة، وأخلاقها ممتازة، وشعرت المرأة بالراحة فلن يكون هناك صعوبات معها.

كان الوقت مساءً في أوائل الخريف. والفصل الدراسي يبدأ في نهاية أيلول، بعد عطلة صيفية طويلة، وظهر فوق البحيرة ضباب متصاعد حجب قسم سلسلة الجبال الطويلة. سارت السيارة عبر طريق مرصوف، حيث التقطت نظرات داماريس منظر المنازل التي تشبه «الشاليه» والنوافذ والحدائق المليئة بالزهور، وسألته المربية بالفرنسية «إنها جميلة أليست كذلك؟». وسرت جداً عندما حاولت داماريس أن تحيّيها بنفس اللغة. لهجتها لا زالت بحاجة إلى تصحيح، ولكن من الواضح أنها تعرف اللغة، وليست خائفة من محاولة التحدث بها.

عند وصولها، أرشدتها إلى غرفة تشبه الصومعة. في الواقع كانت صومعة راهبة، مفروشة بأثاث فاخر بستائر وأغطية على السرير الديني الطراز. الأثاث كان من الخيزران المجدول المدهون بدهان فاتح، والخزانة مثبتة في عمق الجدار، وجدران البناء القديم كانت سميكة جداً، ولها زجاج طويل على الباب، وكانت حقيبتها موضوعة عند السرير، وقالت لها المربية:

- العشاء عند الساعة. ستغيرين ملابسك بالطبع، وسأرسل لك سيليست لتريك المكان. وستراك المدام في مكتبها بعد العشاء.

وتركت القادمة الجديدة المرتبكة لوحدها، مع توقعها لرؤية طاولة مليئة بالوجوه الغريبة، وبدأت بإفراغ حقائبها، وقلبها يرتجف، خائفة مما ينتظرها.

فتيات غريبات، فتيات من عمرها لا تعرف كم عددهن، ولم تكن قد اختلطت بأي منهن من قبل.

وقرّع الباب، ودخلت شابة. كانت ترتدي ثوباً من الشيفون الزهري، استعداداً لوجبة الطعام، وشعرها الأسود مجعد باتقان فوق رأسها، وبدت أكبر من عمرها حتى أن داماريس ظنت أنها مربية أخرى.

وقالت بمرح «بونسوار، صغيرة.. لا تنظري إليّ هكذا وكأنني سأكلّك! أنا سيليست دو فالمووند وأتمنى أن نصبح صديقتان».

وأجابت داماريس وقد اعجبتها سيليست:

- وأنا أيضاً أتمنى ذلك.

- هل ارتديت الثوب الأبسط لديك؟ انظري إليّ.. ثوبي يشبه ثوب فتاة في مسرحية، ولكن المدام ستحبه، فهو مختلف، أؤكد لك أنني عندما أعود إلى البيت سألبس البنطلون والبلوز ذات الباقة الواسعة.. آه!

وأخرجت داماريس ثوباً بسيطاً أبيض اللون فقالت الفتاة:

- آه... هذا سيعجب المدام. وستعطينها الانطباع الجيد، أليس كذلك؟ البسيه.

ما توقعته من محنة لم يعد يرهبها تحت جناح سيليست. وفي وقت قصير أصبحتا صديقتين.

طوال الفصل الأول، كانت سيليست درعها ومتراسها. التجاذب بين الفتاة الفرنسية المتألقة وبين الانكليزية المكبوتة كان تجاذب الأضداد، لأن داماريس كانت تقوم بكل شيء ما عدا التآلق خلال أسابيعها الأولى، مع أن سيليست كانت تشير إلى أن وقتاً سيأتي وستظهر محبتها ما يدهشهم جميعاً. وأعلنت للجميع قائلة:

- إنها لا تملك عيون الشيطان دون طائل.

انتظروا، يا اطفالي إلى أن تثبت قدميها.

وأخذت داماريس تفكر لماذا كل هذا التركيز دائماً على الأقدام، وتساءلت عما حصل لذلك الرجل الذي لفت انتباهها لأول مرة إلى قدميها، وقال أيضاً إن لها عينا ساحرة، يبدو أن لا أحد في جوار رافنسكراج يعرف عنه شيئاً، على الرغم من أنها قامت ببحث سري عنه. أحياناً كانت تتساءل عما إذا كانت قد حلمت بكل هذه القصة.

رفيقاتها كن مزيجاً من جنسيات مختلفة، كانت الأكاديمية تستضيف الفتيات الشريبات والأفضلية لسليبات الأسر، ولكن، أمام القيم المتغيرة في العالم العصري، لم يكن الارستقراطيون وحدهم من يملكون المال الوفير. وهكذا سعت المدام إلى طبقة الأثرياء الجدد، إضافة إلى بضع تلميذات من العائلات القديمة، اللواتي تستقبلهن بأسعار مخفضة لأجل اسماءهن فقط. احداهن كانت سيلبيست دو فالموندي التي يملك والدها قصرًا قديمًا خرباً في «هوت سافواي» ولقباً لم يعد يستخدمه. ولكن شخصاً ما كان يدفع لداماريس كامل الأقساط، هل هو ابن العم مارك، أم السيد بريستون؟ كان يبدو لها أن اللقب غير ضروري، ولكنه يلزمها بأن تفعل أفضل ما بوسعها. ولم يكن هذا أمر صعب، فقد تأسست على يد الأنسة كارو جيداً، والدروس سهلة عليها وهي رياضية ممتازة، ولكن الوجه الاجتماعي، شيء آخر.

كانت زميلتها أوديت لامونت تتبجح بشكل فاضح عن مغامراتها خلال عطلة الصيف. ولكن كل ما كانت تقوله بدا مصطنعاً ولم تتخدع به سيلبيست، وقالت لداماريس:

- هذه الفتاة عندها خيال واسع.

- ولكن لماذا تخترع هذه القصص.

وهزت سيلبيست كتفيها وتخدع السخيفات وتجعل من نفسها بطلة رومانسية. نحن نقراً كثيراً عن حياة الحرية، ولكن والدها ليس من الطراز الذي يسمح لها بأن تطبق ما تقرأه، أنا أعرفه.

كان الوقت قبل العشاء، وغيّرت سيلبيست ملابسها وقدمت إلى غرفة داماريس، بينما كانت تكمل زيتتها، وقالت داماريس:

- أنا بعيدة عن كل هذه الأمور.

- ولماذا؟ كلنا نتوق إلى الحب.

- لا اظن أن معانقة وراء الباب، ستكون مثيرة كركوب الخيل في الريف.

- آه... صحيح أنك متوحشة صغيرة. لقد عشت كل عمرك مع جدك العجوز، لذا لا تعرفين معنى الحب.

- لقد قابلت شخصاً عانقني، ولكنني لا أعتقد أنه شيء شاعري. كل هذا التلاعب بالحب، هو... هو عمل رخيص.

واحمرت وجنتاها وهي تعترف، وقد تذكرت الشاعر التي أحسنها على حافة ذلك المنحدر، وضمت شفتاها باشمئزاز. فقالت سيلبيست:

- إذا أنت تنتظرين «الحب الكبير»؟ ولكنه لا يأتي لنا جميعاً. بالنسبة لي سأرضى بشخص عادي يقدم لي الأمان والراحة.

- ولكن لا بد أن عندك رجل أحلامك؟ كيف تخيلين حبيبك المثالي؟

- طويل وأشقر، ليس صغيراً في السن، وأفضل رجلاً يعرف الدنيا.

- وهل تتوقعين أن تلتقي بفتى أحلامك؟

وعادت سيلبيست إلى طبيعتها فضحكت بخشونة:

- ولا بأمل ضعيف «شيري». أعتقد أن مثل هذا الرجل غير موجود إلا على صفحات الكتب... ولكن أنت... ليس لديك فكرة عن فني أحلامك؟
- أوه... أجل، إنه طويل أيضاً ولكن أسمر، بعينين زرقاوين لامعتين، لَوَحته الشمس، جانب وجهه يشبه النسر، وله ابتسامة غريبة...
وتوقفت بارتباك، وقد شعرت أنها تصف الرجل الذي التقته عند المنحدر.
وصاحت سيليست:

- انت محمّرة... هل هذا لأنك قابليته فعلاً؟
- ربما...

- وهل أعجب بك؟ هل وقع تحت قدميك؟
وقالت داماريس ضاحكة «لقد وقع تحت قدمي، ولكنه لم يعجب بي، لقد أعتقد أنني ما زلت طفلة».
- كم هذا محزن! ولكن كل هذا سيتغير عندما يراك ثانية. فأنت لا تبدلين كطفلة الآن.

والتفتت داماريس لتتنظر إلى نفسها في المرأة وقالت:
- لا... لا أبدو كطفلة. ولكنني لن ألتقي به ثانية.

يوم عيد الميلاد تلقت داماريس هدية من هيلين كنزة صوفية مشغولة باليد، مع بعض الصور للكليين برفقة ابن شريكها ماري بروك، دافيد. وقالت في رسالتها إنها التقت بالسيدة غارت التي تدبر رافنسكراج، والتي قالت إن السير مارك يتردد على المزرعة ليراقب التصليحات فيها. وأرسل لها السيد بريستون بطاقة معايدة. وضمّن رسالته شيكاً بمبلغ كبير لتغطية المصاريف.

صباح الميلاد بعد أن عادت من الكنيسة، دهشت عندما شاهدت في غرفتها باقة زهور مغلفة من القرنفل والورد، وكانت رسالة من محل أزهار محلي، وعليها بطاقة تقول «مع تهاني الميلاد» كذلك علبة صغيرة، فتحتها لتجد فيها سواراً فضياً تزيّنه قطع جالبة للحظ، ووجدت بطاقة كتب عليها «مع الأماني بأن تجلب لك هذه الحظ... م...؟».

م؟ هل يمكن أن يكون مارك؟ هل اعترف أخيراً بوجودها؟ وأمست بالسوار وتفحصت كل قطعة على حدة: حذاء فضي، وتمثال القديس كريستوفر، طاحونة هواء، زورق، وقطعة نقد قديمة، ذلك النوع من الأشياء التي ترضي فتاة مدرسة. إذاً مارك لا يزال ينتظر أن تكبر.
وقرعت إحدى الخادومات الباب ودخلت الغرفة لتتأكد من استلامها الهدية. قالت إن الهدية وصلت باليد من نفس البلدة. إذاً، الأزهار من مارك ترهران. وكانت الخادمة مرتابة أن هناك معجب بها. فقالت لها داماريس:
- إنها من ابن عمي.

وعادت سيليست من العطلة وقدمت لها بعض المثلجات كهدية. ونظرت مباشرة إلى السوار التي كانت داماريس تضعه، وسألته:
- هل هذا منه؟

- منه أجل، ولكن ليس الذي تقصدينه.

- داماريس، انت كالحصان الأسود، كم شاباً تعرفين؟

- ولا واحد... هذه من قريب لي.

كانت سيليست قد جلبت لها معها دعوة من مدام دوفالموند لقضاء عطلة الفصح في القصر. ولكن مدام لوبرون لم تسمح بهذه الزيارة دون سؤال السيد

بريستون، وأملت كثيراً أن يشير عليها بأن تعود إلى بلدها، لأن الوقت قد حان بالتأكيد لمقابلة ابن العم مارك، ولكنه رد بالموافقة على زيارة فالمود. مما أصابها بخيبة الأمل.

ولكنها نسيت كل خيبتها عندما جلست في سيارة الأجرة، صباح يوم ربيع مشرق، وقد أصبح الفصل الدراسي الشتائي وراءها، برفقة سيلبيست متجهتين إلى سافواي. وبدأت البحيرة كالحريز الأزرق تحت ضوء الشمس، وسط الحقول المليئة بالثلج وقد غابت الغيوم وظهر الكثير من جبل مون بلان. وقطعتنا الحدود بعد أن تفحص رجال الجمارك حقائبهما، ثم بدأت الطريق بالتصاعد، مارة خلال تورون، وهي بلدة صغيرة على شاطئ البحيرة، ثم إلى غابات مرتفعة تقطعها منحدرات رائعة، وكانت كل الشاليهات ترتفع على جوانب التل وتحت الطريق كان النهر، وقد ارتفع من جراء الثلج الذائب، يجري بسرعة وهو يرغمي عبر الممرات الضيقة.

كان شانودو فالمود من الخارج وكأنه بناء من الأساطير، واجهته محاطة ببروج مستديرة، يقع على هضبة قرب الغابات تحتها القرية يختصها سهل واسع على طول ضفة النهر، وصاحت داماريس من البهجة لمراى هذا المنظر، ولكن سيلبيست هزت كتفها دون اكتراث وقالت:

- أستطيع القول إنه يبدو رائعاً، ولكنه من الداخل غير مريح أبداً. وأنا أفضل الأبنية الحديثة، ولكن على الأقل لدينا أدوات صحية حديثة. وصعدت السيارة الطريق المرتفع نحو القصر وتوقفت عند فسحة عريضة مفروشة بالحصى أمامه تماماً.

المنزل يواجه الوادي الذي قدما منه صعوداً، والمنظر الذي يشرف عليه رائع، وخلفه تمتد الغابات متصاعدة الى حدود السماء.

وخرجت داماريس من السيارة وتنشقت الهواء المعطر برائحة الصنوبر. كان الباب الأمامي الكبير مفتوحاً وخرجت منه مدام فالمود، لتحيتهما. كانت امرأة صغيرة الحجم، شعرها الأسود يتخلله الشيب فوق وجه شبيه بوجه النسر، وعلى الرغم من قصرها كان يبدو عليها سياء النبل، ووقفت الى جانبها كلبان ضخمان جلداهما الصفراوان يلمعان تحت أشعة الشمس. وصاحت سيلبيست «نابوليون، جوزفين!». واسرع الكلبان إليها فأخذت تداعبهما. وسألتهما أمها:

- هل تحبين الكلبين قبل امك؟

فضحكت سيلبيست، وتركتها لتقبل أمها، ولاحظت داماريس مدى التشابه بينهما، وقالت سيلبيست:

- لقد وصلا إلى قبلك، امي... هذه داماريس.

- آه... كم أنت أنيقة، أهلاً بك يا عزيزتي الى فالمود.

ومدت يدها، وأسرعت داماريس إلى مصافحتها وهي مسرورة، فالقول من قبل امرأة فرنسية إنها أنيقة اطراء جدير بالاهتمام، ويعني انها تقدمت كثيراً منذ أيام رافنسكراج!

غرفتها كانت في احد الابراج، ومليئة بالاثاث القديم، وسرير ذو اربع قوائم.

وقالت لها سيلبيست «أنا آسفة إذا بدا لك المنزل كمحل أثريات. ولكن كل شيء نملكه هنا قديم، والمكان كله يبدو كمتحف».

وقالت داماريس «أظن أنه جميل» وذهبت نحو النافذة وصاحت «بها للمنظر الجميل!». في الواقع كان للغرفة ثلاثة نوافذ في الجدار النصف دائري تطل على طول الوادي، والتلال المليئة بالأشجار ترتفع على جانبيه.

وقالت سيلبيست مترددة:

- لم أخبرك من قبل، لم أرغب في ان تعرف مدام لوبرون، ولكن... حسناً الحقيقة، أننا نؤجر غرفة خلال أيام الصيف... وهذا يساعدنا... فالبيت كبير، وهو فارغ معظم السنة.

- ولماذا لا... إنه شيء يفعله الكثير من الناس في هذه الأيام. هل عندكم ضيوف الآن؟ أمل ان يكونوا أشخاصاً لطفاً.

- قالت امي إنها إنكليزيان، يدرسان علم الغابات. لم اشاهدهما بعد، ولكنني أمل معك أن يكونا لطيفين. أنت تعرفين أن والدي في الحقيقة هو الكونت دوفالموند، ولكنه لم يستخدم اللقب منذ الحرب، وهو يقول إن اللقب والمستأجرين لا يتوافقان.

وجلست داماريس على السرير الكبير وضحكت:

- كل شيء هنا رائع يا سيليست، مثل القصص الخرافية، وأتمنى فقط أن يتناسب ضيفاكما مع الصورة.

- على الأقل هما رجلان. الصيف الماضي كان عندنا امرأة عجوز، سائحة، تسأل باستمرار أسئلة مضجرة، أتمنى ان لا يكونا أصليين وسميتين.

- لا اظن أنها كذلك إذا كانا تلميذين في علم الغابات.

- أجل... واي شيء يتعلق بالغابات يبدو لي رومانسياً.

عند تناول طعام الفطور، بعد وقت قصير من وصولهما، لم يكن حاضراً سوى العائلة، لأن الضيفان كانا معتادين على قضاء النهار في الخارج، ولا يحضران إلا وقت العشاء.

ووجدت داماريس أن مضيفها لطيف لدبجة محرجة. بقسماته الملكية الأرستقراطية البارزة، وجسمه المستقيم الطويل، وكان مسروراً لاكتشافه أنها تتكلم الفرنسية التي جرى معظم الحديث بها. وتقبلت بابتهاج عرضه بمرافقتها

لمشاهدة القصر بعد الطعام. وهكذا بدأ دوفالموند وداماريس جولتهما بالبيت نفسه أولاً، الذي كان ضخماً، والعديد من غرفه غير مستعملة، قاعة الرقص، المكتبة، ثم البهو بأعمدته التي تمتد على طول الطابق الأرضي، حيث كانت صور عائلة فالمود المعلقة على الجدران المكسوة بالخشب، وتذكرت داماريس لوحات صور عائلتها في غرفة الطعام في رافنسكراج.

ثم خرجا ليتجولا في الجديقة، حيث الاسطبلات التي لم يعد فيها خيول، بل سيارة «رينو» قديمة. وقال لها السيد «كنا نملك في الماضي أفضل الخيول، ولكن الزمن يتغير، ولم اعد أستطيع ركوب الخيل».

- إنه مكان جميل.

- كان كذلك في الماضي. ولكن عندما أموت سياع. سيليست لا تهتم به، كل مهما العيش في المدينة، وليس لدي ابن يرثي.

وذكرها هذا ثانية برافنسكراج حيث لا ابن ليرث لو أنها كانت صبياً، لأصبح المكان لها لتجبه وتعتني به.

عندما عادا، صعدت مع سيليست لتغيير ثيابها استعداداً للعشاء ولمقابلة الضيوف. ثم نزلا إلى الصالون، حيث كان والدها ينتظران. واقتربت ساعة العشاء، ونظر والدها إلى ساعته وقال «لقد تأخر ضيفانا».

واعلنت أصوات أقدام مسرعة، أن الضيفان قد أدركا خطأهما، ودخل شاب إلى الغرفة وقال بالإنكليزية:

- كريستيان لن يتأخر أكثر من لحظة، لقد تعطلت السيارة ونحن في طريقنا إلى هنا، وهو متسخ قليلاً.

ونظر إلى سيليست بفضول، فأسرع والدها يقول:

- ابنتي سيليست... وهذا يا عزيزتي السيد غريف.

- كيف حالك يا آنسة؟

ومد دونالد غريف يده، وتبادلت داماريس النظرات مع صديقتها، لقد كان طويلاً وأشقر، ولكن إلى هنا يتوقف التشابه بينه وبين فتى احلام سيلبيست. وقال السيد دوقالموند ولن نتظر أكثر وإلا سيبرد الحساء.

ومد يده لزوجته، وأسرع دونالد لتقليده ومد يده الى سيلبيست وسار الجميع إلى غرفة الطعام. واخذت داماريس تتساءل عما سيكون شكل كريستيان. كانوا قد اتوا تناول الحساء عندما دخل كريستيان، وأسرع السيد دوقالموند للتعريف.

- السيد كريستيان تريفور - الأنسة داماريس ترهران، ابنتي سيلبيست.

وانحنى كريستيان للمحوريتين قبل أن يجلس، وقالت سيلبيست:

- مسيو تريفور أنا سعيدة باستضافتك.

- الشعور مشترك يا آنستي، ولكن أرجو أن تناديني كريستيان.

- حسناً، ولكن ناديني سيلبيست.

ورفع السيد دوقالموند حاجباه فاستدارت ابنته إليه:

- لا تندهش هكذا يا أبي، كل الشبان في هذه الأيام يستخدمون الاسم

الاول. كريستيان، إنه اسم غير مألوف، اليس كذلك؟ سوف تتوافق مع داماريس فاسمها أيضاً غير مألوف.

والتفتت العينان الزرقاوان إلى داماريس، هاتين العينين الزرقاوين تبدوان مألوفتين لديها.

- أجل إنه اسم غريب، ولكنني سمعت به من قبل.

هل يعني بهذا أنه قد تعرف إليها؟ ولم يعط أية إشارة أخرى.

كريستيان تريفور، الاسم الذي كان يجب أن تعرفه من زمن طويل لو أنها كانت ذكية. فمن الطبيعي ان لا يكون له اسم عادي، واخذت تحمّر وتشحب، وهي تذكر كل ما قالته له عن نفسها تحت المنحدر في رافنسكراج، كم يا ترى يتذكر من ذلك الحديث؟ لا عجب في أنه ضحك يومها من سداجتها، لقد كانت طفلة بالفعل، ولكنها الآن وقد أصبحت أكثر حنكة، تستطيع أن تحابه على نفس مستواه. لقد كان نحيلاً واسمراً كما كانت تذكره، ولكنه هذه اللبلة حليق الذقن، ونظيف، ويرتدي بذلة قاتمة جميلة وقميصاً بلون الثلج. ولاحظت أن ما يرتديه غالي الثمن، ما عدا أن يديه تدلان على أنه ليس ثرياً كما تشير إليه ثيابه الأنيقة. كانتا خشتان مثل يدا دونالد من جراء العمل بالفأس والمنجل، إذا فهو عامل غابات في الواقع، على الرغم من أنه يختلف في المظهر كثيراً عن زميله.

لقد كانت ترغب في مشاركته الحديث، لتظهر له مقدرتها. ولكن بدا وكأن كل شيء تعلّمته قد هجرها، وأحست بالخجل منه، وسيلبيست لم تعطها فرصة.

بعد انتهاء تناول الحلوى، وقفت السيدة فالموند، وأشارت إلى الفتاتين لتتبعها، وقالت للرجال بكل تهذيب:

- ستضمون إلينا لاحقاً لتناول القهوة.

وتبعت داماريس مضيفتها إلى الصالون، حيث ارتمت سيلبيست على الصوفا وهي تنهد قائلة:

- السيد كريستيان لطيف جداً. أمي، لن تقنعيني أبداً أنه يدرس الغابات.

- هكذا قال عن نفسه، ولم أطلع على اوراقه، وهذا غير ضروري طالما أن هنا ليس فندقاً، ولكنه يمضي كل وقته يعمل في الغابة، انت رومانسية جداً يا

طفلي. انظنين انه امير متكرر؟

- إنه يبدو كامير.

- ليس هناك أمراء هذه الأيام، وحتى لو كانوا، فإنهم فقراء، ولكن هذا ليس فقيراً، كائناتاً من يكون.

- آه.. انت تثيرين اهتمامي.. سأحاول أقصى جهدي أن اكتشف كل شيء عنه.

داماريس أيضاً كانت تشعر بالفضول لتعرف كل شيء عنه، وعندها أسباب أكثر من أسباب صديقتها. فقد قابلته أول مرة وهو يقع عن المنحدر في كورنوايل، وكانت غيبية إذ لم تعرف منه ماذا كان يفعل هناك أو ما اسمه، ولكنها لم تشأ إخبار سيلبيست عن تلك الحادثة، وخاصة أنها غير متأكدة إذا كان كريستيان سيتعرف عليها مع أنها واثقة أنه نفس الشخص، ولا يمكن أن تكون مخطئة، على الرغم من أن من المدهش أن يظهر هنا في فالمونند.

وقدمت القهوة على صينية من فضة، بعد أن دخل الرجال إلى الصالون. وراقبت دamaris مناورات سيلبيست لتجعل كريستيان يجلس إلى جانبها وليس دونالد، وما أن نجحت في هدفها، حتى مالت إليه تحدثه بصوت خفيض لا يمكن للآخرين سماعه، وبدا أن كريستيان وجد ملاحظاتها مسلية.

وأدرك دونالد أنه لن يستطيع التقدم إلى سيلبيست فغير الغرفة وجلس في المقعد الفارغ قرب دamaris. ونظر إليها عبر نظارته وقال:

- تبدين جدية كثيراً آنسة ترهران.

- أنا متعبة قليلاً، كل شيء هنا غريب، وبحاجة لوقت لاستوعب مكاناً جديداً علي.

- آوه.. انت ضيفة أيضاً؟ اراهن أنك مرتبكة، اليس كذلك؟

لقد أرسلت بعض الصور عن المكان لامي ولم تصدق أنني أعيش في قصر كهذا.

وشعرت دamaris بالدفء نحوه، فقد كان شخصاً واقعياً.

وسألها: ربما أنت معتادة على مثل هذه الأماكن؟

- لا، مع أن منزلي ضخم وكبير، وهو قديم ويقع في كورنوايل.

- حقاً! إنه مكان عظيم، لقد أمضيت بعض العطلات هناك ولكن الطقس هناك لا يعتمد عليه، لذا فالتناس يسافرون إلى الخارج، فالشمس هنا متوفرة أكثر.

وتحدثنا عن كورنوايل، ووصفت له رافنسكراج. واثناء تحدثنا لاحظت أن كريستيان كان ينظر إليها، والتفت عيناها عبر الغرفة الواسعة. وحدث بها دون أن يشتم، وأدركت أنه قد عرفها. ومررت يدها ترتب طرف ثوبها، وأملت بأن يفكر كم تغيرت. ووقفت سيلبيست قائلة:

- لماذا نجلس هكذا؟ عندي مسجلة، هل تحبان الرقص؟ وعارضت أمها

قائلة: لا يا سيلبيست، ليس هذه الليلة.. فهذان السيدان يجب أن يستيقظا باكراً لوظيفتهما، والوقت متأخر، وأنت أيضاً لا بد أنك تعب.

- أنا؟ أنا لا أتعب أبداً.

وركضت عبر الغرفة نحو المسجلة، وأسرع دونالد خلفها ليساعدها.

فالت دamaris:

- ولكنني تعب، أظن من الأفضل أن أقول «تصبحون على خير».

ووقفت الوالدة قائلة:

- حسناً . سارافتك الى غرفتك .

وفتح لهما كريستيان الباب، وبينما هي تمر امامه شعرت برعدة تسري في عروقها، كانت قد نسيت كم هو طويل وجذاب، وتبعها إلى الردهة ومد لها يده مصافحاً:

- تصبحين على خير، أيتها الحورية.

إذا فقد تذكرها! وأمسكت يده بيدها بقوة وحرارة، وتطلعت عيناها إلى عينيهِ، والتفت بتلك النظرة الغريبة التي أربكتها على الدوام، وتذكرت ايضاً انه عانقها، العناق الوحيد الذي اختبرته في حياتها، واحمرت وجنتاها. وقالت له بهدوء، اكبر بكثير مما كانت تشعر به:

- كنت اتساءل عما اذا كنت قد عرفتي.

وضغط على اليد التي لا يزال يمسك بها. وقال:

- من يراك مرة، مستحيل أن ينساك.

كانت السيدة تقف على أول السلم، ومن داخل الصالون ارتفع صوت المسجلة، وصوت سيلبيست تنادي كريستيان، فترك يدها وقال:

- ستحدث في الغد.. تمتعي بنومك.

وعاد الى الصالون، ولحقت داماريس بمضيفتها على السلم العريض، وهي تتعجب من القدر العجيب الذي أعاده إلى حياتها.

في اليوم التالي أبدت سيلبيست اهتماماً لا مثيل له بعلم الغابات، وسألت والدها أن يأخذها إلى الغابة. كان الشابان قد تناولا فطورهما قبل استيقاظ الفتيات وخرجا للعمل في مكان مجاور. وقال لها والدها:

- يا ابنتي، اظن أنك ستلهينهم، فضيفانا موجودان هنا للعمل للسيد بونفيل.

- ولكنني أريد أن أرى ماذا يفعلان، وأنا واثقة أنها سيرحبان باستراحة ليحياتي.

في النهاية حصلت على ما تريد وخرجت مع والدها بالرينو القديمة. وفضلت داماريس البقاء في البيت. واخذتها السيدة إلى المطبخ، حيث ظهر لها أنها المسؤولة الوحيدة عن معظم الطعام الشهي، يساعدانها خادمتان يمثلتا الجسم، لم تكتشفا بعد الفرص التي توفرها لهما المدينة. ولكنها سرعان ما خرجت إلى خارج المنزل لتتجول، ونزلت الى التراس الاسفل لتجد مرج أخضر مفتوح على منظر أشجار سرو ممتدة على الجانبين، ترمي ظلالها على بعض التماثيل التي لا تزال منتصبه. شجيرات الورود المتشابكة خلف أعمدة النور بحاجة إلى تشذيب، والعشب يحتاج الى العناية وإلى خلع الأعشاب الضارة، والمكان كله ترك لتتلفه الطبيعة. وعبر المرج تجري ساقية صغيرة. وأفضى بها السير إلى ممشي مسقوف، يفصل عن القصر من خلفه بجدار حجري، وتصب الساقية عبر شلالات مصغرة في بحيرة صناعية حيث تلمع الاسماك الذهبية من خلال زنبق الماء. وقالت بصوت مرتفع وكم هذا المكان رائع!

- أكثر غمداً من رافنسكراج؟
 والتفتت بعنف كان كريستيان تريفور يتقدم نحوها عبر المشى المرصوف.
 فقالت له وقد فقدت توازنها من ظهوره المفاجيء.
 - ولكن... ألم تذهب إلى الغابة.
 - هذا ليس إلزامياً لي.. اما «دون» المسكين فهو ملزم، وأنا أستطيع ان
 افعل ما أشاء. هل نجلس؟
 وأشار إلى احد المقاعد المنتشرة في فتحات الجدار الحجري. فجلست
 باحتشام، وهي تبسم مفكرةً بسيلبست التي تتحمل مشقة التراجع على
 طرقات الغابة في السيارة القديمة على أمل ان تلتقي بالرجل الجالس إلى جوارها
 هنا.
 - ماذا يضحكك؟
 - لا شيء، ولكن مسيو دوفالموند وسيلبست ذهبا إلى الغابة ليروك هناك.
 والتقت عيونهما وقال:
 - حسناً، سيجدان دون هناك، وسيكون مسروراً لرؤيتها وإطلاعها على ما
 يفعل.
 وفكرت «اماريس»: مسكينة سيلبست، وأبعدت نظرها عنه، شيء ما في
 عمق العينان الزرقاوان كان يتفحصها خفية. واستمر بالتحديق بها، وشعرت
 بأن اللون في وجهها يتغير، فسألته بعصية:
 - هل هناك أسماك في البحيرة؟
 - انت تعرفين ان هناك أسماكاً؟ هل تحبين مدرستك؟
 - كيف تعرف أنني في المدرسة؟
 - لقد أخبرني السيد والسيدة. الليلة التي سبقت قدومكما لم يتحدثا عن

شيء سوى عن مؤسسة مدام لويرون الفريدة من نوعها، وكم من حسن حظكما
 أنكما مقبولتان هناك، أرى أن المدرسة قد نجحت في عملها معك.
 - لم أكن دائماً تلك المتشردة التي التقيتها عند الشاطئ، حتى قبل أن تتعامل
 معي مدام لويرون.
 - لم تكوني؟ ولكنك تعلمت الأناقة والاتزان. وسيذهب كل هذا سدى في
 رافنسكراج، اليس كذلك؟ أم أنك لن تعودى إلى هناك؟
 - طبعاً سأعود.
 - وهل يتوجب عليك العودة؟ هل يصر ابن العم مارك على عودتك؟
 واجابت باقتضاب «أنجل».. لقد تذكر الكثير.
 في الواقع لم يقل الاوصياء عليها أي شيء حول المستقبل، بعد قضاء سنتها
 في سويسرا.
 وقال لها رفيقها:
 - ليس واجباً عليك أن تطيعه، أو الزواج منه، إذا لم ترغبي في ذلك.
 فنحن لم نعد نعيش في العصور الوسطى.
 وشبكت يداها فوق ركبتيها وقالت:
 - لن أفكر ابداً بأن لا أنفذ وصية جدي.
 - ألا تزالين واقعة تحت تأثير عقدة الجد؟ لقد ظننت أنك نضجت وتخلصت
 منها.
 واثكأ إلى الخلف، وأخرج علبة سجائر غالية الثمن وقال «أندخين؟».
 - لا.. لم أدخن من قبل ابداً؟
 - فتاة عاقلة. يقال إن التدخين كالسم. ولكننا نبتلع الكثير من الدخان
 اليوم، ولا أظن أن التبغ هو الأكثر خطورة بينها.

رائحة التبغ امتزجت مع رائحة الزنبق الذي ينمو بمجموعات منفصلة على الصخور. فالmond لم تتأثر بعد بسموم المدينة، وصعدت سمكة وأطلقت فقاعة هواء ثم غطست، وارتفعت الفقاعة بلونها البرتقالي والذهبي. وسألها:
- هل قابلت هذا السيد العجوز، ابن عمك مارك؟ وهل كان حسبما تتوقعين؟

- تقريباً...

ولم ترغب في أن تعترف بأن مارك لم يزعج نفسه للقائها.

ونظر إليها نظرة غامضة وقال:

- هل كان يشبه جدك؟

- له شبه كبير بالعائلة.

ومدت يدها وقالت:

- لقد أرسل لي هذه في عيد الميلاد.

- جميلة ولكن غير مناسبة. الزمرد وحده يناسب عينك. من الواضح أنه لا

يزال يعتبرك طفلة، ولكنك تبدين الآن وكأنك بلغت سن الرشد، مع أمني أن لا تكوني راشدة زيادة.

وقالت له متجاهلة ملاحظته حول الرشد:

- عياني ليستا خضراوين.

وأمسك بذقنها، كما فعل مرة من قبل، ورغماً عنها، وقد انجذبت بنظرته،

رفعت عينها لتلتقيا بعيني الزرقاوين، وتمتم:

- لا... ليستا خضراوين، أو ربما قليلاً، وهناك لون ذهبي أيضاً، من الصعب إيجاد حجر كريم يناسبهما.

وانحنى ليقترب أكثر، وأخذ قلبها يدق بعنف وقد أحست به بكل عرق ينبض في جسدها. ولكن إذا عانقها ثانية، يجب أن تحتج، ويشدة. فهي ليست حرة، ولكنه لم يفعل، بل رجع إلى الوراء وأنزل يده عن ذقنها.
- ابن عمك مهمل لأنه أرسل لك فقط هذه الهدية الطفولية، ولكن ربما لا يعرف أنك أصبحت كبيرة.

- لقد أرسل لي أزهاراً أيضاً.

- مع حبه؟

وأصبح لونها أحمر قانٍ ولم نبحت بأمر الحب. ثم قالت بشيء من التحدي وأنا أعلم أنك لا توافق على هذا، ولكن ليس هناك حل آخر سوى الزواج. فكلانا نرغب برافنسكراج.

- هل أخبرك أنه يرغب برافنسكراج.

- بالطبع يرغب فيه.

ونفض كريستيان وقال ببرود:

- يبدو لي يا عزيزي، أنك تأخذين رغبات ابن عمك كأمر واقع. على كل،

لقد سئمت من ذكره.

هل تحبين التنزه في السيارة؟

- ولكنني اعتقدت أن السيارة مع دونالد.

- أجل هي معه، ولكنني لا أفكر أبداً أن آخذك بتلك السيارة الفظيعة.

معي سيارتي الخاصة.

وترددت، فمع أن النهار جميل، ونحب كثيراً أن تشاهد الريف، ولكن

الإخلاص لمارك يشير عليها بأن ليس من الحكمة أن تكون لوحدها مع كريستيان.

وكانه قرأ افكارها، فقال وقد فقد صبره:

- أنت لست في عهد الحريم، حتى ولو اعتبرت نفسك مخطوبة، ومارك في كورنوايل.

وتذكرت سحقها على ابن عمها لتجاهله لها، فأطاحت بتعقلها في الهواء وقالت:

- أحب أن أذهب.

وسارت أمامه عائدة عبر الحديقة.

٣ - لا مكان للحب

صعدت داماريس لتحضر حقيبتها اليدوية ونظارتها الشمسية، بينما ذهب كريستيان ليلعب السيدة دو فالملوند، بأنه سيأخذ ضيفتها في نزهة، فوافقت على أن يعود بها في وقت الغداء.

وعندما عادت داماريس، كان قد أحضر سيارته عند الباب الامامي، وراث بنفسها أنها فعلاً تختلف عن سيارة العمل «اللاندروفر»، فهي طويلة وأنيقة ويبدو عليها أنها غالية الثمن. ومع ذلك فقد أتى لينزل في هذا القصر برفقة اختصاصي غابات حقيقي لدراسة الاشجار. واحست داماريس، كما احست سيليست، ان هناك غموضاً يجب عليها كشفه.

وانجهمت السيارة نحو القرية وبعد عدة طرق جانبية، خرجت بهما الى الطريق العام، نحو بلدة «أنسي» وسألته:

- ما الذي دفعك إلى القدوم إلى مكان منعزل مثل فالملوند؟ لا أستطيع في الواقع أن أصدق أنك مهتم بالاشجار.

- ولماذا لا؟

- حسناً انت لا تبدو مثل دونالد.

- هل يجب ان يكون للمرء مظهر معين ليكون خبيراً بأشجار السرو؟

- انت تعرف ما أعني، وهناك غابات أكبر وأفضل في أماكن أخرى من أوروبا.

- صدف أنني أحببت هذا الجزء من أوروبا والعمل مع دونالد. أما إذا ما كان يناسبني، فلإشارتك هذه ليست مؤدبة بالنسبة لمضيفينا، فلنا أجدهما رائعين، وجو القصر مريح.

- أعتقد أنه جميل... ولكن ما عدا هذا ليس هناك مجال للمقارنة.

- وهل هذا يشكل فرقاً؟

- ألا تعتقد؟

- أؤكد لك، مهما ابتعدت فلن تجدي مكاناً مثل فالموندي.

- وهل لديك خبرة واسعة في هذا المجال؟

- خبرة واسعة جداً... أما الآن فلتتكلم عن شيء آخر.

وشعرت وكأنه يصدها، فلم تتابع أسئلتها.

وصلا إلى «أنسي». وكانت بلدة صناعية على شواطئ بحيرة صغيرة جميلة،

وفنادقها مليئة بالسياح. واقترح كريستيان عليها تناول القهوة، وجلسا على

تراس أحد المقاهي الذي يشرف على البحيرة.

وقال لها ساخراً «هل تعلمونك شيئاً عن الأشجار والتحطيط في

المدرسة؟».

فأجابته برزانة «لا، ولكنهم يعلموننا الأخلاق الجيدة».

- آه... لقد نسيت، فأنا أنتمي إلى الجيل الذي ليس عنده أخلاق.

ولكنني أحب استكشاف الغابات والجبال.

- وهل ستقوم بتسليق الجبال هذه السنة؟

- لا، فليس لدي وقت، فساكون مشغولاً جداً.

- بالأشجار؟

- لا، فلدي اهتمامات أخرى.

- مثل ماذا؟

فابتسم، وأخرج علبة سجائر وأخرج منها واحدة وأشعلها، ووضع العلبة على الطاولة، ومالت إلى الأمام لتنظر إلى الأحرف المنقوشة على العلبة، وكانت «س. م. ت. فسألته:

- ماذا يعني حرف «م»؟

- ولماذا تريد أن تعرفينه «أنسة حشرية»؟

ووضع العلبة في جيبه، فقالت له بخبث:

- لأن الأمر سيكون سيئاً لو أنها تعني «مارك».

- ولماذا؟ أين عملك ليس لديه احتكار للاسم. وهو شائع في هذه الأيام.

- هل هو شائع؟ لقد بدا لي أنه قديم.

- هل بسبب اسطورة تريستان وإيسوليت؟ انها المفضلة لديك، أذكر أنك

أسميت كلبك باسمها. هل تظنين أن «الملك مارك» سيأخذ فكرة سيئة بأنك

على علاقة مع تريستان في سافواي؟

- لا اظن أنه بهذه البلاهة، وليس هناك شيء بيني وبينك ليعترض عليه.

وأحمرت من الغضب، لأن اختيارها للكلمات كان غير ذكي، فقال لها عن

قصد:

- ليس بعد، من يعرف ما قد يحصل؟ فقد تفعين في حبي. لقد وضعت

لك أكسير الحب في القهوة.

ونظرت دون وعي إلى كوب قهوتها الفارغ، ثم ضحكت:

- كم هذا مضحك! كيف تستطيع فعل هذا على كل الأحوال؟ وليس هناك مثل هذه الأشياء.

- لا تكوني واثقة هكذا، فأنا رجل واسع الحيلة.

- على كل، أنت لا تمثل فكري عن تريستان.

- حقاً؟ لقد خيبت أمل، لقد اعتقدت أنني أشبهه ولو لم امثل دوره.

- وهذا ما لن نحلم به بالطبع. على كل اسم عائلتك ليس انكليزياً.

- جاء دوري لأخيبي املك. فاسم تريفور، كما اعتقد، هو من مقاطعة ويلز البريطانية.

ونظر إلى ساعته وتابع:

- إذا أردنا أن نصل في الوقت المحدد للغداء فالأفضل أن نذهب الآن.

عندما وصلا إلى القصر، كانت سيلبيست قد عادت من رحلتها الفاشلة، وخلال الغداء أخذت تنظر إلى داماريس نظرة ثابتة وهي تقول لكريستيان:

- لم يكن لدي فكرة أنك لم تكن تعمل. كنت أفضل أكثر أن أذهب إلى أنسي، بدل الغابة. هل لديك الكثير من وقت الفراغ؟

- أحصل على وقت الفراغ ساعة أشياء. ولكنني متأكد أن ذهابك إلى هناك قد ابهج دون المسكين.

- أظن أنه سر لرؤيتي.

واقترح كريستيان، كي يرضيها، أن يمضي اربعتهم الامسية في الخارج. وعندما عاد دونالد وافق على الفكرة. كذلك وافق السيد والسيدة فلموند.

وتأكد كريستيان من وجود جوازات سفرهم لأنه كان ينوي أخذهم إلى جنيف، مما خيب أمل داماريس لأنها كانت تعرف تلك المدينة، وكانت تفضل مكاناً لم تعرفه بعد. وجلست بالقرب من كريستيان في السيارة، وسيلبيست مع دونالد في الخلف.

في الطريق توقف عند محل للزهور، واشترى باقة من البنفسج لكل فتاة، همراء لسيلبيست وبيضاء لداماريس، التي قالت وهي تثبت الزهور على فستانها:

- اعتقد أنها ستكون ليلة ستذكرها طويلاً.

- أنا أقصد أن تكون هكذا.

وعبروا الحدود، وعندها بدت لهم جنيف مختلفة تماماً عما تعرفها داماريس في النهار. وقاد كريستيان السيارة عبر طريق إلى جانب البحيرة، حيث كانت كل الاضواء التي لا تعد ولا تحصى المنبثة من الفنادق والجسور تنعكس على صفحة البحيرة، وكأنها جواهر متلألئة فوق المخمل الاسود. ومن مكانهم المرتفع بدت لهم ابراج «سان بيار» في الجزء القديم من البلدة، وهي غارقة بالاضواء المشعة.

وقالت داماريس «إنها مدينة ساحرة هذه الليلة!» وقال كريستيان وهو يرمقها جانبياً «إنها المكان المناسب للرومانسية».

تناولوا العشاء في أحد أكبر الفنادق. وأثناء تناول الطعام، أمسك دونالد بيد سيلبيست، تحت الطاولة، وتركته يفعل نكايه بكريستيان، الذي همس لداماريس:

- انظري ماذا يفعل الجو الرومانسي حتى لرجل انكليزي بارد.

وقالت له بدهشة «الست انكليزياً أيضاً؟».

- انكليزي باسم ويلز؟

- ولكن اهل ويلز بريطانيون اليس كذلك؟

- أجل ولكن ليسوا انكليز، في الواقع أنا من اصل مختلط.

من اصل مختلط؟ اخذت تفكر وهو يدبر رأسه ليتحدث إلى سيلبيست. كل خط من جسده النحيل، ومن جانب وجهه الجميل، واصابع يديه الطويلة، تتكلم عن سلالة. ربما عندما تعرفه أكثر، سيخبرها عن بيته وعائلته. فكل ما تعرفه الآن عنه، أنه رحالة، غير متزوج، او هكذا قال، ويدرس علم الغابات، عندما يناسبه الوقت. وتذكرت أن السيدة فالوند قالت إنه ليس فقيراً. وخمنت، أن العمل في الغابات ما هو إلا هواية، ولا يمكن أن يكون يعمل من أجل الحاجة.

بعد العشاء ذهبوا إلى صالة الرقص، التي كانت تندل من سقفها ثريات من الكريستال. وقسم كريستيان وقته لمراقبة الفتيات، عندما رقصت معه كانت تشعر بالفرح. كان يتحرك برشاقة وخفة، أما هي فقد اكتسبت خبرة في الرقص من الاكاديمية، وتناغمت خطواتها تماماً، وامسك بها قريباً منه ولكن على بعد قليل، وعبر الاجساد الراقصة كان يقودها برشاقة كمحترف تقريباً.

وقالت لنفسها إن رقصه الجميل هو الذي كان يدفعها بشوق لأن تكون بين ذراعيه، ولكنها عرفت أن هناك شيء آخر كان يدفعها.

وقال لها «هل بدأ السحر يفعل فعله عليك؟».

- بالتأكيد. إنها ليلة ساحرة، ولكنها ستنتهي عند منتصف الليل، فكل السحر الجيد ينتهي.

لا بد انها ستسامح نفسها لأجل ليلة واحدة نسيت فيها كل شيء عن مارك تهران، استسلمت لسحر هذا الرجل الجذاب.

في الواقع كان منتصف الليل قد مضى عندما غادروا باتجاه المنزل. وسارت السيارة الكبيرة عند حافة البحيرة، وكان القمر قد ارتفع ليلقي بنوره الفضي فوق الماء، ويضيء الهضاب البعيدة، ثم ابتعدت بهم الطريق عن البحيرة، نحو التلال، وسأل كريستيان:

- حسناً هل ستذكران هذه الليلة؟

وضحكت قائلة «كل حياتي». ومن المقعد الخلفي تمتعت سيلبيست «إنها ليلة جديرة بالذكر. أنت لطيف جداً».

وبدا لها «القصر» من ابنية الأساطير أكثر مما مضى، وهو ينتصب فوق الضباب الخفيف الذي يغمر الوادي، وضوء القمر يضيء أبراجه، بدا غير حقيقي وغاية في السحر. خلفه برزت الغابة، الصاعدة باتجاه السماء. ولم يظهر منه نور سوى عند الباب الامامي، فمن فيه نائم الآن. وتوقف كريستيان أمامه، وخرج من مقعده واستدار ليفتح لها الباب، بينما أمسك دونالد يد سيلبيست لتنزل. وقال كريستيان:

- دونالد يا صديقي، الأفضل لك أن تهرع إلى الفراش لن تنام كثيراً قبل أن تضطر إلى النهوض لعملك.

ونظر إليه دونالد وهو نصف نائم، وقال:

- ايعني هذا أنك لن ترافقني غداً؟

- ليس باكراً، ربما فيما بعد خلال النهار. سأترك السيارة هنا حتى الصباح. وبينما كان يقفل السيارة، وقفت داماريس إلى جانبه، وحدثت سيلبيست

بها، وهزت كتفيها، ودخلت إلى المنزل. ولحق بها دونالد، وأفضل الباب وراءهما. وهبت نسمة هواء عابقة برائحة أزهار الربيع، ومن على أشجار الورد بدأ عندليب الغناء. وتنهدت داماريس وقالت:

- كم هي ليلة جميلة! يبدو أن من العار أن نتركها ندخل.

- هل نذهب ونرى إذا ما كان السمك الذهبي يتمتع بهذه الليلة؟

وترددت. كانت تعلم أنها يجب أن تدخل إلى المنزل، والبقاء هنا مع كريستيان أمر غير حكيم، ولكنها شعرت بعدم الرغبة في ترك روعة الليلة القمرية، وإنهاء هذه الأمسية الساحرة.

وقالت بخفة «هيا بنا» ورفعت تنورتها الطويلة وركضت بخفة لتنزل السلم، عبر المرح.

كانت نظير كالفراشة، وتبدو وكأنها طيف حورية بثوبها الأخضر، ومن خلفها يسرع طيف كريستيان، وكأنه إله الغابات يلاحقها. ووقفت عند البحيرة، متوردة ضاحكة.

كان ضوء القمر يجعل المياه تلمع كاللؤلؤ، وصعدت سمكة تسعى وراء حشرة، ثم هبطت ثانية، وتموج الماء بألوان سوداء وفضية. رائحة الترجس كانت تملأ الهواء الربيعي. واستدارت إلى كريستيان الواقف وراءها.

- إن السمكات هنا، لقد رأيت إحداها... أوه! وجذبها نحوه، وأمسكها قريبة منه. رائحة التبغ وعطر ما بعد الحلاقة التقياً في أنفها مع رائحة البنفسج التي سحقت على صدرها، وبعدها كل حواسها اختلطت وهو يضمها أكثر بين ذراعيه، كان عناق يختلف عن ذلك الذي اختبرته عند قمة المنحدر. كان هذا

أسراً، متملكاً، مدمراً تماماً. ثم وينفس السرعة التي حضنها بها، تركها. ووضعت يدها على فمها وصاحت «أوه!» واستمر العندليب بالغناء، ونغماته الشبيهة بصوت المزمار تملأ الجو الهادي.

واستدارت داماريس وصعدت السلم بسرعة، لتصل إلى المرح الصغير، ثم بدأت تركض، وعرفت أنه يتبعها، وشعرت بذعر مفاجئ يتنابها، وزادت من سرعتها. كانت تركض هاربة من مشاعرها نحوه. واصطدمت بالباب الامامي الضخم، وللحظة من الرعب الذي لا مبرر له. اعتقدت أنه مقفل. وهبطت يده على يدها وعلى مقبض الباب معاً. وقال بصوت طبيعي تماماً «إنه قاسٍ قليلاً، اسمحي لي أن أفتحه».

وبدأت دقات قلبها المتسارعة تهدأ. وفتح الباب، ولكنها لم يتحركا على الرغم من تباعد يديهما، وعلى ضوء المصباح ممتزجاً بضوء القمر من ورائهما لم تستطع رؤيته بوضوح، وبدأ لها ضحكاً وخطراً إلى أن لاحظت أنه يضحك بصوت منخفض. وقال:

- يا صغيرتي، ماذا هناك في عناق صغير؟

كان هناك لمحة حنان في صوته لم يستخدمها من قبل وتابع قائلاً:

- إنها طريقة مناسبة لشكرك على الأمسية الرائعة. ولا حاجة لك للهروب مني وكأنني خفاش خارج من جهنم.

- لقد ظننت...

- ظننت ماذا؟ هل تصورت أنني سأحاول إغواء خطيبة مارك ترهران؟

وأصابها الذكرى كالسوط، فتمالكت نفسها وعادت إلى رزانتها فوراً. وقالت ببرود:

- بالطبع لا، ولكنني لا أظن أن ابن العم مارك سيرحب بعناقي لك، حتى ولو من أجل الشكر. تصبح على خير سيد تريغور، أظن أن شكري قد عبرت عنه قبلاً.

وتخطته، وصعدت السلالم المضاءة بنور خفيف، وهي تحس بضحكته الساخرة تلاحقها. وعندما وصلت الغرفة، وجدت سيليست هناك بانتظارها وقالت الفتاة الفرنسية بريبة: - لقد تأخرت.

- كنت أقول له تصبح على خير واقفل الباب وعلق... واستدارت إلى المرأة، وهي تدرك أنها محمرة الوجه ولم ترد أن ترى سيليست ارتباكها. وعلقت سيليست بصوت جاف.

- كم هذا مناسب! أعتقد أنه عانقك؟

- حسناً، اليس هذه الطريقة الصحيحة لتقديم الشكر على امسية رائعة؟

وضحكت سيليست ضحكة قصيرة وقالت:

- هكذا إذا! لم يمنحني الوقت الكافي لأشكره!

حسناً يا عزيزتي، تهنتي لك، من الواضح أنه مفتون بك وأنا أنسحب من المنافسة. آه... كم أنت محظوظة. إنه واحد من مليون... لقد ظهر لي الآن أنه يطابق وصفك عن فتى أحلامك... ذلك الذي التقيته ولم تتوقعي رؤيته ثانية... هل من الممكن أن يكون هو كريستيان؟

وهزت داماريس رأسها بالإيجاب فتابعت سيليست قولها:

- لديك إذاً أفضلية غير عادية، لقاء سابق هل كان يعلم أنه سيقابلك هنا؟

وجلست داماريس على مقعد طاولة الزينة وقالت:

- بالطبع لم يكن يعرف... إنها صدفة محضة، وأنت تستتجين أشياء خاطئة. ليس هناك أي شيء بيني وبينه. ربما في الغد يكون دورك، لا تخجل أنه يتحلل بفضيلة الإخلاص الزائد.

وبدت الدعشة على سيليست وقالت:

- اتعنين أنني إذا استطعت أخذه منك، فلن تغضبي؟

- أبداً... في الواقع قد يكون هذا أفضل.

سيليست حرة، أما هي ففي أفق مستقبلها يلوح طيف ابن عمها مارك. كان يتملكها ارتياح غير مريح بأن كريستيان يحاول متعمداً دفعها لفسخ خطوبتها التي لا يوافق عليها أبداً. وقالت لها سيليست بمرح:

- شكراً كثيراً لك... بما أنك أعطيتني وكرت بلانش. سأحاول طبعاً، رغماً عن أنني لا أعتقد أن هذا أمر ممكن.

ونهضت سيليست واقتربت من صديقها وحدقت بعينيها، فأدارت رأسها بعيداً، وقالت سيليست:

- يا صديقتي، ربما ارتكبت تلك الغلطة؟ أعتقد أنك وقعت بحبائل هذا الشاب الجميل

وصرخت داماريس بغضب:

- لا... لا أقع بحبه، ولا يجب. سيليست، إذا كنت تحبيني، لا تتركيني أبداً معه لوحدي ثانية.

- حسناً يا عزيزتي، إذا كنت ترغبين بهذا.

وبدت سيليست محتارة، هل يبدو أن كريستيان وغد؟ وقالت:

- لا تخافي يا صغيرتي، أعتقد أنني أستطيع التعامل معه، تصبحين على خير يا حبيبتي.

بعد أن خرجت، جلست داماريس لفترة طويلة، وهي تحديق إلى خارج النافذة، حيث يدخل نور القمر عبر الستائر المرفوعة. الوقوع بحب كريستيان تريفور يعني الكارثة. كانت واثقة أن ليس لديه النوايا الصادقة، وعليها أن تفعل ما بوسعها لأن تصرف المشاعر غير المرحب بها المتواجدة داخلها، وبسرعة. ولا يجب عليها أبداً أن تكون من الغباء بحيث تسمح لنفسها أن تكون لوحدها معه ثانية. قد تساعد سيليست، والعطلة ستنتهي قريباً. وعندما تنتهي ستعود إلى دراسة الفصل الأخير من السنة وبعدها رافنسكراج والسير مارك ترهران، وما من شك أنها تستطيع أن تعصى قلبها، وتبقى بعيداً عنه خلال ما تبقى من عطلتها. في الخارج، وفي الحديقة، كان العنديل لا يزال يغني، وأسرعته إلى النافذة واقفلت الستائر، في وجه ضوء القمر، وغناء العنديل، وذكرى عناق كريستيان. فمستقبلها هو هناك فوق المنحدرات الرمادية في وطنها حيث يوجد قلبها الحقيقي.

وتم لها ما أرادت، فقد أعلن دونالد أنه اكتشف حشرة ضارة بالصنوبر، وهكذا اضطرت كريستيان للخروج معه يومياً، لتفحص مدى ضررها، ومناقشة وسائل مكافحتها.

عادة بعد العشاء، كانت سيليست تقفز إليه حالماً يدخل الصالون لتناول القهوة ثم تجره لتدبير شريطها المفضل، وأحياناً كانت تخرج به إلى القاعة لتراقص. وفي إحدى المرات دخل عليها كريستيان ودعاها للانضمام إليهما ولكنها رفضت ببرود وراقبته وهو يعود إلى سيليست بعينين حزيتين. إخلاصها لابن عمها يكلفها الكثير.

فيما بعد، وبعد عدة أمسيات، تبعها على الدرج وهي ذاهبة باكراً إلى النوم وقال:

- لماذا هذا التصرف البارد؟ هل أزعجتك، أم أنك خائفة؟
كان يقف على الدرجات أعلى منها لمنعها من الصعود، ونظرت إليه ورأت في عينيه ذلك الوميض الذي طالما أربكها، فقالت بسخرية:

- بالطبع لست خائفة، ولم أخاف منك؟

وشعرت بقلبها يخفق بسرعة، وأجابها:

- هناك عدة أسباب. أولاً أنك لست غير مهمة بي كما تدعين.

وسبب لها هذا الكلام الذي لا يحتمل احمرار وجهها، وأصبحت عينها أكثر اخضراراً، وهما تلاقيان عيناه بتحدي..

- أنت سخيف! هل تتصور أن كل فتاة مجنونة بحبك؟ لديك سيليست.

- ربما لا أرغب في سيليست. إلا تعلمين أن الرجل صياد؟ وهو ينجذب إلى ما هو صعب المثال.

- حقاً؟ ولكنني لست تلك المثيرة للاهتمام كثيراً.

وحاولت أن تضحك، ولكنها فشلت، وارتجفت شفتاها. وبعد مدة

قصيرة، وبجهد كبير، خفضت عينها وقالت:

- أرجوك، أنا في طريقي إلى الفراش، تصبح على خير، سيد تريفور.

ولكنه لم يتزحزح بل قال:

- أنا منتظر.

- ماذا ينتظر؟ وأخذت تفكر يائسة بالعودة إلى الصالون عندما دخلت

سيليست إلى القاعة وصاحت بصوتها المرح:

- كريس... كريستيان، أين أنت؟ أين أنت؟
وتنحى من طريقها نحو سياج الدرج لترك لها مجالاً لتجاوزته وقال:

- تصبحين على خير يا ملكة الثلج، وأتمنى أن تحلمي بي.
وأسرعت إلى غرفتها، وألقت بنفسها فوق السرير وقد فاجتتها الدموع. هل تستحق رافنسكراج كل هذه التضحيات؟ لو أنه لم يجذبها هكذا لاستطاعت أن تكون طبيعية مع نفسها، وأن تنضم إلى المرح واللهو مع سيلبيست، ولكنها تعلم أنها لو استسلمت قليلاً فسوف تغلب على أمرها... ولكن لماذا؟ هل هو الحب الذي تشعر به تجاه كريستيان؟ هذا الارتباك الداخلي عندما ينظر إليها، هذا الشوق الغامر للمسته؟

لم تكن تحتاج لإكسير الحب، ولا لكتابات سحرية لتسبب لها الارتجاف، أو لتشتعل وجنتاها بالذماء، وهي لا تحرق على البسوح بعواطفها التي تسبب لها القلق، ولا يجب عليها أن تعترف بها، لأنها لا تملك الدليل على أن كريستيان عنده نفس المشاعر. لا بد أنه شعر بالتحدي لإخلاصها لمارك لذا يمتع نفسه بمحاولة إقناعها بالتخلي عن إخلاصها. وتذكرت تحذير السير هيوغ لها من اختلاط الجنسين وسطحية المجتمع الإباحي، وأدركت، بأنها وقد قابلت واحداً منه الآن، فإن ما يريد كريستيان إنما هو عبث رخيص، وبعد أن غزا سيلبيست ثم احتقرها لذلك، ها هو الآن يطاردها بطريقته الخبيثة السوداء، ألم يقل لها بنفسه إن الرجل صياد؟ ولكنها إذا استسلمت له، فإن اهتمامه بها سيموت، وتكون قد خانت مارك ورافنسكراج سدى.

مساء اليوم التالي دخلت عليها سيلبيست الغرفة وهي ترتدي ثياب العشاء وتضع المساحيق على وجهها لتطلب منها النزول لتناول العشاء.

- إنه آخر عشاء لنا هنا قبل أن نعود إلى المدرسة غداً.

وجلست داماريس وهي تفرك عينيها وقالت:

- سأنزل بعد قليل.

ستكون هذه آخر مرة ترى فيها كريستيان ولم تستطع إلا أن تحضر العشاء. وجلس الجميع ساهمين ما عدا سيلبيست المرحّة، ولكنها لم تلاحظ أي تجاوب من كريستيان الذي بدا شاحباً. وبعد تناول القهوة اقترحت عليهم السيدة فاللوند النوم باكراً وذكرت الفتاتان بأن عليهما أن ترتباً أغراضهما. واحتجت سيلبيست فقد كانت تأمل بأمنية مريحة. وأوضح كريستيان أنه ليس بمزاج يسمح له بالسهر، وحاول منع تناوئه بصعوبة. وتناول يدها مودعاً لأنه سيكون في عمله عندما تستيقظ في الصباح للسفر.

ولم يبدو عليه الأسف لأنها مسافرة. لقد حصل عليها بين ذراعيه. وبما أنه كسبها لم يعد يريد لها، وقال دون اكتراث «أمل أن تكوني استمتعت بعطلتك».

- شكراً سيد تريفور، لن أنسى هذه العطلة أبداً.

وفي الصباح التالي استيقظت باكراً، وأسرعت إلى النافذة لتتنظر إليه لآخر مرة، وهي تحتقر نفسها لهذا الضعف. كان الصباح مشرقاً وصافياً. واستجيب رغبتها عندما مر أمام البرج، سائراً مع دونالد يتحدثان، وهو يرتدي ثياب العمل الخضراء، ويبدو نشيطاً ومتيقظاً ذلك الصباح. وخبات نفسها بحذر وراء الستارة في حال أنه نظر إلى الأعلى، ولكنه لم يفعل. إذاً فهي بعيدة جداً عن تفكيره وكأنها غير موجودة.

بعد الإفطار بقليل وصلت سيارة الأجرة، بعد أن رفضت سيليست العودة إلى المدرسة بسيارة الرينو القديمة، لتأخذها عائدتين إلى جنيف.

٤ - في انتظار العريس

اوشك فصل الصيف الدراسي على نهايته، وبالنسبة لداماريس، التي هي الآن في سن التاسعة عشر وستحتفل بعيد ميلادها في العشرين من ايلول، كانت حياة المدرسة مضجرة، ولم تكن تتيح لها أبداً أي تخفيف لآلم قلبها المجروح. خلال الأسابيع الأولى. أخذت تجد المبررات للذهاب إلى المدينة، تارة تحتاج لتصفيف شعرها وتارة عيناها يلزمها فحص، حتى أنها ذهبت مرة إلى أخصائي الأقدام. وكانت تأمل من ذلك أن تلتقي صدفة بكريستيان. لقد دخل حياتها مرتين، ومع كل الظروف لا تستطيع أن تصدق أنها لن تراه بعد الآن. ثم تلقت سيليست أخباراً من أهلها أنه غادر القصر دون إنهاء بحثه، متذرعاً بعمل ضروري وعاجل في بلده.

وقالت سيليست مرة لداماريس:

- لن أذهب إلى المنزل في عطلة الصيف، فلديّ بعض أبناء العم في باريس سأذهب إليهم، وربما تدبرت أمر ذهابك معي.
- شكراً لك. ولكنني سأعود إلى بلدي.

كانت تشك في أن هذه هي الحقيقة، فهي لم تبلغ بعد أي شيء نهائي. لذا تلقت عرض سيليست بقبول. وحاولت أن تقنع نفسها دون جدوى، أن العودة إلى الوطن أمر مفيد لها، وأن من واجبها أن تمحو كل تفكير بكريستيان

من ذهنها. وبدا ان شوقها لرؤيته يزداد بدل أن يتلاشى. وسعت إلى التركيز على عودتها إلى بلدها، فكتبت إلى السيد بريستون، تذكره بأن ستها في الخارج قد أوشكت على النهاية وأنها تتوقع عودتها إلى رافنسكراج. وأخبرت سيلبيست بعد كل هذه المدة عن خطوبتها.

- ولماذا ظننت أنني قد لا أفهم... فالترتيب الذي قام به جدك هو تفكير سليم. وهذا يتم عادة هنا. ومن الطبيعي أن يتمنى اللورد أن تتدربي على مركزك الجديد، لا تخشي شيئاً فخطيك سيفتن بك عندما يلتقيك، وأتمنى أن تدعيني لزيارتك عندما تستقرين.

- طبعاً سأدعوك. ولكن ما يقلقني هي المدة الفاصلة إلى أن أستقر.

- إذا لا تقلقي فاللورد سوف يقوم بالترتيبات اللازمة.

ولكن داماريس لم تكن واثقة أن ابن العم مارك سيقوم بهذا ترتيبات أبداً.

وبالنسبة لكريستيان، وجدت داماريس أن كلام سيلبيست عنه كان صارماً. فقد قالت لها إنه لا يصلح لأن يكون زوجاً. ولم تتناقش داماريس معها، فلو تزوجت مارك، فستدين له بالإخلاص إذا لم تستطع منحه الحب. ولا تعتقد أبداً أن كريستيان سيظهر ثانية في حياتها. لقد أظهر لها بوضوح أنه لا يبالي بمستقبلها.

وكتبت لها هيلين كارو مجددة عرضها لها بالإقامة معها. وقالت إن المتجر قد حقق النجاح منذ البداية، وإن صديقتها ماري بروك تتوق لأن تنضم داماريس إلى إدوته. وأقلقت هذه الرسالة داماريس، لأنها تشير إلى أن رجوعها إلى رافنسكراج غير متوقع. ولكن قبل أن تستطيع كتابة الرد لتطلب كلاماً صريحاً

أكثر، وصلتها رسالة من السيد بريستون يقول فيها إنه وزوجته قادمان لقضاء إجازة الصيف في سويسرا وأنه سيراهما في جنيف.

وارتدت افخر ملابسها لمقابلته، فقد كانت متشوقة للتأثير عليه بالثقافة الجديدة التي اكتسبتها. وعلقت سيلبيست قائلة:

- جميل جداً... ولكن رسمي.

- السيد بريستون يتوقع أن يراني كسيدة. لذا لا أستطيع ارتداء بنطلون وكبزة ملونة.

كان آل بريستون يتزلون في فندق متواضع في شارع خلفي. وأقبل السيد بريستون للقائها، وهي تهبط من التاكسي الذي استأجرته السيدة لويرون لإيصالها. وبدا أكبر قليلاً وأكثر شبهاً. وهز يدها مصافحاً وهو يتفحصها من رأسها إلى أخمص قدميها.

- داماريس يا عزيزتي، كم تبدين فائنة. تعالى وقابلي زوجتي.

وكانت زوجته ذات جسم صغير وبدينة. وحيث داماريس بلطف، ثم تناولوا القهوة في الصالون الصغير، وتبادلوا الحديث حول البلدة ومحيطها، وداماريس تتساءل في نفسها متى سيثير وصيها النقطة الأهم، وأخيراً وقف على قدميه وقال:

- والآن يا داماريس إلى العمل، لقد وعدني صاحب الفندق أن لا يزعجنا أحد.

اعذريني يا عزيزتي.

وابتسم لزوجته ورافق الفتاة إلى ما بدا أنه مكتب صاحب الفندق.

وعندما جلسا قال دون مقدمات:

- لقد زودني السير مارك ترهران بتعليمات كي أبلغك عن استعداداته للوفاء برغبة جدك، والزواج بك إذا كنت موافقة.
وتنهدت داماريس بارتياح، وقالت له:
- لقد كنت أظن أن كل شيء مقرر. وعلى هذا الأساس أتيت إلى المدرسة.
- هذا كان من سنة. وربما غيرت رأيك.
- لم يخطر ببالى أبداً هذا الأمر. كنت أظن أن الأمر محتم.
- هذه هي النقطة يا داماريس. فالسير مارك تواق لأن لا تشعرني أنك مرغمة. وهو مستعد لتسوية مالية، إذا كنت مستعدة لعدم المطالبة بأي حق في الأملاك. وأستطيع القول أن التسوية ستكون سخية. وبما أن الأراضي تؤول للرجل التالي في العائلة، فلا يعود هناك سوى المزرعة نفسها قيد السؤال، ومطالبتك بها متوقفة على هذا الزواج.
- أنا أريد المنزل فقط، إنه منزلي.
- وهل سيكون الأمر نفسه وللمنزل سيد جديد؟
وارتجفت شفتاها، فالسؤال كان قاسياً. وضمتها معاً فوراً ورفعت رأسها بغفرة.
- ولكنني سأكون السيدة. ولا أرى أي هدف من إعادة بحث هذا الموضوع ثانية، فكلنا نعرف أن هذه رغبة جدي.
- كل ما يريد السير مارك أن يؤكد أن لا حاجة بك للشعور بالتقيد برغبة جدك. وهو لا يريدك أن تضطري إلى تنفيذها إذا ثبت أنها لا تحقق سعادتك. وضربت يدها على ركبتيها الموضوعية فوق الأخرى، ونظرت إليه بلبثات وقالت:

- وهل تعتقد أن من المستحيل عليّ إيجاد السعادة وأنا زوجة لابن العم مارك؟
وتحت وطء النظرة المباشرة لعينيها الصريحتين، انهار وبدأ يخرجاً فقال لها:
- انت لم تقابليه بعد... إنه أكبر منك بكثير... أعتقد... أتساءل... فيها لو...
- لو أنني التقيت بغيره؟ لم يكن بإمكانني هذا وأنا في المدرسة. على كل أنا واثقة تماماً أنني لن التقي بأي إنسان قد يعرض عليّ خسارة رافنسكراج.
وقال السيد بريستون بحدة «إنك تخاطرين مخاطرة كبيرة».
- هذه وجهة نظري... من كل ما سمعته أظن ابن عمي غير متحمس للزواج مني.
- وماذا تتوقعين يا عزيزتي، فهو لم يلتقي بك بعد.
واستدارت شفتاها بسخرية وقالت:
- غلطة من هذه؟ كان بإمكانه أن يلتقي بي في أي وقت من هذه السنة التي مضت لو أنه كان مهتماً. كان يمكن له أن يأتي إلى هنا بدل أن يرسلك، أظن أنه كان فظاً على طول الخط.
- لقد كان مشغولاً طوال الوقت، في إعادة تجديد الممتلكات ولم يكن يريد إزعاجك...
- هذا كلام سخيف! لتوضح هذا الأمر فوراً. هو يريد رافنسكراج ولكن لا يريدني، ولكنني أيضاً أريد رافنسكراج، ولن أسمح له بأن يخرجني من بيتي.
وإذا كان يريد السكن هناك عليه أن يتوافق معي!...
وتنهت السيد بريستون، فكلام داماريس لا يشير أبداً لزواج سعيد. وقال:

- حسن جداً. ساقبل بهذا، والآن إلى التفاصيل الخاصة. لا تستطيعين السكن في رافنسكراج بينما يسكن السير مارك هناك الى أن تتزوجا.
- ولم لا؟... السيدة غارت هناك. الن تكفي لأن تكون وصيفتي؟
- لا... والسير مارك لا يجب أن يسمع بهذا. فعنده مركزه ومركزك في المقاطعة قيد الاعتبار.

- حقاً؟ إذاً هذا هو السبب وراء رسالة هيلين، هل اتصلت بها؟
- طبعاً.

- وطبعاً دون مشورتي. ومتى ينوي ابن العم مارك ان يفي بما يتعلق به من الاتفاق؟

- إنه يقترح سنة خطوبة، إلى أن تتعرفا ببعضكما أكثر...

وقفزت على قدميها، وعيناها تلمعان. ألم تكن خطوبة له لأكثر من سنة حتى الآن؟ وقالت بغضب:

- كم هذا لطف منه! حتى الآن أمضيت اثني عشر شهراً في المنفى، حتى أصبح مناسبة له ليسمح لي بدخول بيتي، وخلال هذا الوقت كان يمكن له أن يتفحصني. لم أعد طفلة، سيد بريستون، ليصدر إليّ الأوامر. سأذهب عند كاري لأن ليس لديّ مكان آخر أذهب إليه. وعندما أرى ابن العم مارك لديّ الكثير لأقوله له، أكثر مما يريد أن يسمع. وإلى ذلك الوقت... سأعود عندما تناسبني العودة. فانا افكر في البقاء في باريس.

- في باريس؟ ولوحدهك؟

- مع اصدقاء لي... ولن أطلب الإذن منك، او إذن ابن العم. وتستطيع أن تقول له إنني ساموت قبل أن أتركه يطردني من بيتي!

وأدرك السيد بريستون أن المناقشة لن تجدي. فهذه المراهقة كانت جميلة جداً في غضبها. إنها سريعة الغضب وعنيدة كأسلافها تماماً. وسيلاقى زوجها صعوبة في ترويضها. وهز رأسه الاشيب بحزن، فالسواء وحدها تعرف نتيجة هذا الزواج المدبر الذي لم يكن في مقدوره منعه. وأشار إلى أن مقابلتها قد انتهت، وعليها أن يعودا إلى زوجته.

وتحققت زيارتها إلى باريس. وتلفت داماريس دعوة من ابناء عم سيليست، وقبلتها بغبطة. لقد كان أول قرار مستقل لها، لأنها كانت تعرف أن المحامي لم يوافق، وكانت بمثابة صفقة لابن عمها مارك. لتريه أنها ليست مستعجلة لأن ترتبط أكثر مما هو مستعجل.

ابناء عم سيليست كانوا عائلة من أربعة. الابوان وصبي وفتاة، يعيشون في ضاحية جميلة من العاصمة. وعندما علم الزوجان الشابان أن داماريس غريبة عن باريس، أصرا أن يريها كل معاملها، حتى أنها أخذها إلى قصر فرساي وفاونتن بلو.

كما شملت زيارتهم مقاهي الأرصفة المختلفة حيث يجتمع التلاميذ وتجري مناقشة أي موضوع يمكن أن يوجد تحت الشمس. وأخيراً ها هي داماريس تختلط مع شبان من كلا الجنسين في مثل عمرها.

حوالي منتصف شهر آب، انتهت الزيارة، وعادت سيليست الى فالمونند، وهناك امكانية بأن يطلب أحدهم يدها ويرغب والداها أن تلتقي به.

وسافرت داماريس جواً إلى لندن ثم بالقطار. وقابلتها هيلين في المحطة الرئيسية، لأن معظم المحطات الفرعية كانت مغلقة. وفكرت داماريس، لو ان ابن العم أتى معها لكانت بادرة جيدة منه. ولكن لم يكن هناك سواها على

المحطة بانتظارها. وأعادت رؤيتها لمريبتها السابقة ذكريات حادة إلى ذهنها. لم تتغير هيلين أبداً. حتى أنها كانت ترتدي نفس الثياب التي تتذكرها داماريس جيداً، عكسها هي، إذ لم تتعرف عليها هيلين إلى أن ركضت إليها وقبلتها.

- كاري ألم تتعري علي؟
- داماريس!... ما هذا التغيير الصارخ! لا.. لم اعرفك.. لقد كبرت وأصبحت أجمل.

- على السيدة لوبرون أن تنجح بعملها لتستحق أجرها.
وضحكت داماريس بخجل، وعلمت من هيلين أن صديقة لها قد أوصلتها إلى المحطة وبأنها ستعيدهما إلى المنزل عندما تنتهي من عملها في البلدة، وخلال هذا الوقت عرضت أن تشربا الشاي في مقهى المحطة.

بعدهما جلستا لتناول الشاي، قالت داماريس:
- أنا سعيدة لأن كل شيء تم على ما يرام، ولكن ماذا بشأن ابن العم مارك؟ هل قال متى هو قادم ليرالك؟
- لا، لم يقل..

- لم يقل؟ ماذا تعنين؟ لماذا لم يقل؟
- لقد أخبرني السيد بريسثون أن عليك حضور حفلة في الشهر القادم بمناسبة عيد ميلادك، حيث ستعلن الخطوبة. ويبدو أنه يرغب في استقبالك ولكن في الوقت المناسب.

وكانت هيلين تتحدث بطريقة جافة، فقد كانت تكره كل هذه الإجراءات وترغب قلبياً بأن تقنع تلميذتها السابقة بتغيير رأيها. واهمر وجه داماريس وقالت بغضب:

- لم أسمع بشيء مبهين أكثر من هذا! هل يظن أنني سم؟ سأذهب إلى رافنسكراج وأراه في الحال.

- لن يرحب بك، ولن يكون هذا لائقاً. لقد سمعت أن القصر كله قيد الترميم، لذا فما من شك أنه لا يريد أن تراه قبل أن ينتهي.
- ولكنني أحبه كما كان.

- عليك الاعتراف أنه كان خرباً ويحتاج إلى تصليح. ربما يأمل في مفاجئتك.

- لا أريد أن يفاجئني، كان الأفضل أن يستشيرني، يبدو أن ليس لي رأي فيما يفعل.

- الخطوبة ما هي إلا شكليات، وإذا تبينت أن هذا الرجل لا يحتمل تستطيعين فسخها في أي وقت.

- وأخسر رافنسكراج؟
- يا فتاتي العزيزة، المكان ما هو إلا أحجار وبلاط، ولا يستحق التضحية.

- ولكنه بيتي، والناس هناك يعرفوني كل عمري، إنهم شعبي، وليسوا له، وأنا أنتمي إلى ذلك المكان، على فكرة.. كيف شكله؟ اعتقد أنك رأيته؟

- لا... ومن كل الوقائع يبدو أنه عازب مسن قاسي. داماريس، أتمنى أن تعيدي النظر بفرارك. انت لا زلت صغيرة، ألا تدركين أنك قد تقابلين رجلاً أصغر سنّاً؟ شخص قد نجيبه، ويكون الأوان قد فات.

- أنا لست رومانسية يا هيلين، ولا أظن أن الحب مهم، ولن أخون رافنسكراج لأجله.

- ولا السبر مارك؟

- ولا ابن العم مارك.

حانوت مارى بروتك للمهدايا يقع في شارع فرعى، ويصعد زائر بهضج درجات ليصل إلى باحة داخلية مرصوفة بالأحجار والأزهار في أواني الزرع. فوق الحانوت ومن خلفه وأمامه هناك أماكن سكنية قليلة.

وقالت هيلين وكأنها تعتذر بعدما أوصلتها صديقتها بالسيارة أمام المنزل:

- إنه منزل صغير، أخشى أن تشعرى بالضيق قليلاً.

- لا أمانع أبداً طالما أنني لا أنطفئ على حياتكم.

وشعرت بأنها وحيدة وغير مرغوب بها. ولكن ليس لوقت طويل. فقد أقبلت مارى راكضة لترحب بها وتقبلها بحرارة. وقالت صارخة وقد لاحظت توتر داماريس:

- اهلاً بك يا عزيزتي داماريس... لقد سمعت كثيراً عنك حتى أنني أشعر أنني أعرفك.

واقبل خلفها ابنها الصغير، في الخامسة من عمره.

- دايفيد... تعال وقل مرحباً لخالتك داماريس.

واعترضت داماريس قائلة «أوه... لا... ليس الخالة أرجوك. أنا لست كبيرة في السن إلى هذا الحد... مرحباً دايفيد».

وترجع الولد إلى الوداء وأصبعه في فمه، ثم أخرج أصبعه وقال:

- لقد أنجبت سول سبعة جراء.

- كم هذا مثير... هل تربيني إياها؟

وضحكت مارى، وقال، وهي تحمل إحدى الحقائق:

- لنترك المسكنة ترناح أولاً...

وأظهر العواء المهتاج، والخرشة أن الكليين قد تعرفا على صوت داماريس.

وأنها لن يرضيا بالاستقرار. واقترحت عليها هيلين قائلة:

- ربما من الأفضل أن نتحدثي معها قبل أن يمزقا المكان، سندخل أنا ومارى حقائبك.

في الباحة الصغيرة خلف المنزل، جرى لقاء مؤثر، وجن جنون نريس وسول بالغبطة، وكادا أن يوقعانها أرضاً من فرط حماستهما. وقال لها دايفيد: «الجراء موجودة هنا» وفتح باب غيباً، وخرجت الجراء السبعة وهي تنخبط. وقال دايفيد «أحب أن أطمعهم... ولكن أمي تقول إنك ستعتين بهم الآن».

- سوف تساعدني بالطبع، وربما نرغب في الاحتفاظ بواحد لك.

فالتفت إلى الفتاة وقال «أنا أحبك». وأغرقت عينها، فقد كان ابن العم مارك مهمل لها، ولكن الترحيب الذي لاقته من الأصدقاء عوض عن هذا الإهمال.

لو أن رافنسكراج كانت قرية لتغذت داماريس تهديدها بزيارة ابن عمها، ولكن ذلك كان بعيد المنال. كما أن وقتها كان مليئاً بالعمل، لأن تدفق السياح الموسمي قد بدأ وكانت دائمة الانشغال في الحانوت أو مطلوب منها أن ترعى دايفيد في المنزل، وسرعان ما أصبحا أصدقاء بمضيان وقتها بملاعبة الجراء.

ومضت الأيام متسارعة، واقترب موعد إعلان خطوبتها بسرعة غير متوقعة. وكانت مسرورة بقرب رؤية منزلها أكثر من مقابلة ابن عمها. فهي لا زالت ساخطة من تجاهله لها. وما زاد من جرح مشاعرها أنها تلقت بطاقة دعوة لحضور تلك الحفلة، مع معلومات مطبوعة عليها بأن سيارة سترسل لإحضارها، وبأنها ستمضي الليل هناك. حتى أنه لم يزعج نفسه بالكتابة شخصياً.

- إذا هناك ابن عم موجود فعلاً، لقد بدأت أشعر أنني أتعامل مع روح دون جسد.

- إنه موجود حقيقة.

في صباح يوم مشرق، دخل دايفد راكضاً، في حالة إثارة كبيرة وهو يصيح «جيايد يا «ريس».. تعالي وانظري» ثم استدار وخرج ثانية مع داماريس، وعندما وصلت داماريس إلى الخارج وجدت ثلاثة جيايد تقف هناك. وترجل من كان على الجيايد، وهمهم واحد منها وصرخت داماريس «شييا!.. إنها شييا!..»

وتعرفت الفرس على صوتها وتقدمت نحوها، لتكبجها الفتاة التي تركبها. وكان هذا كثير على داماريس لتحمل. وصرخت بحدة: «لا تفعل! هذا! إنها تملك فماً حساساً، وغير معتادة على المعاملة القاسية».

وسمعت صوت رجل ولكنه أجنبي يقول «من هذه، يا روزيتا؟».

- بحق الله... كيف لي أن أعرف؟ ولكن ربما تستطيع أن تدلنا على الطريق وقال صوت نسائي آخر «إنها تعرف فرسك والفرس تعرفها. هل هاهي بلدة بوسكاسل؟».

وردت داماريس «اجل».

ونزلت المرأة عن الجواد وأعطت الرمن للرجل، وتقدمت نحو داماريس وقالت «إذا أنت داماريس ترهران؟».

- اجل.. هذا أنا، كيف تعرفين اسمي؟

كانت هذه المرأة سمراء تشبه الفتاة التي نركب «شييا» ولكنها أكبر سنًا بكثير، وبدت أنيقة، وكأنها في صباها كانت جميلة جداً. ومدت يداها الاثنتين

وقالت «أنا ابنة عمك ايلينا، شقيقة مارك، أنا مسرورة جداً للقائك. من حسن حظنا أن أضعنا الطريق».

وتغتمت داماريس قائلة «اعذريني» وأسرعت لتضع الجرو وراء الباب ثم استدارت لتمسك باليدين اللتين ما زالتا ممدودتين لها. وجذبتها ايلينا نحوها وقبلتها على خديها. وقالت:

- نحن نسكن الآن في رافنسكراج.

ثم التفتت إلى الرجل الأسمر، الذي نزل بدوره عن ظهر الجواد وهو يمسك بالجوادين معاً، ووقف لينظر إليها متفحصاً، وقالت «وهذا زوجي بيدرو دوكوستا وهذه شقيقته روزيتا. قصرنا في الارجتين قريب من قصر ترهران».

وانحنى بيدرو بطريقة أجنبية، ولكن روزيتا تجاهلتها، بينما أجهدت داماريس فكرها محاولة إدراك هويتهم. وتذكرت أنها سمعت أن ابن العم مارك لديه شقيقة متزوجة. ولكن بما أنها كانت تسكن في اميركا الجنوبية فلم تكن تفكر بها. وأدهشها أن يكون مارك يمتع عائلته في منزلها بينما هي مبعدة عنه، وأن يسمح لروزيتا بركوب فرسها شييا. وكان عليها أن تقاوم موجة حارقة من السخط وهي تحاول أن تسجيب بطريقة متمدنة لتحية ايلينا، وقالت، وهي تفكر بأنها استغفلت:

- لم يكن لدي فكرة أنكم اتيتم إلى انكلترا. كان يجب على ابن العم مارك أن يخبرني.

وضحكت ايلينا، وكان عندها ضحكة مرحة، وعلى الرغم من تكدر داماريس فقد شعرت نحوها بالدفء. وقالت:

- اخشى أن نكون سرقنا له المفاجأة، لقد كنت أتوق للفائلك، ولكن مارك قال إننا يجب أن ننتظر إلى يوم حفلة ميلادك الراقصة في الأسبوع القادم، وإلا كنا أتينا لزيارتك. أظن أنه كان يخطط للقاء دراماتيكي معنا. وها قد أفسدنا له كل شيء.

وقالت داماريس بجفاف «هذا أمر صياني».

وردت ايلينا «آه... ولكن الرجال قد يكونون صيانيين بشكل مدهش». وقامت روزيتا بحركة تم عن قلة الصبر مما جعل الفرس تتراقص، ورمقت داماريس، وقالت بصوت عميق أجش وبلكنة أجنبية:
- إذا أنت عروس ماركو.

- هل أنت إسبانية؟

وابتسمت روزيتا دوكوستا لتبرز اسنانها البيضاء الحادة وقالت:

- لا... بل من الأرجنتين، حيث نتعلم التعامل مع الجياد جيداً، هل تشكين في هذا.

- انا أسفة، فرؤيتك تركين شيئا أدهشني...

- لقد قال ماركو إنها تحتاج لتمرين... وبما أنك غير موجودة...

- فهمت...

وشعرت بالسخط ثانية، فلم تكن غلطتها لعدم تدريب شيئا، لأن إقصاءها عن البيت، كان بسبب عدا مارك. وبما أنه ملا البيت بأقربائه فقد كانت أحق بأن تكون هناك من عائلة دوكوستا.

وتدخل بيدرو قائلاً «سيدتي، نحن بعيدون عن المنزل ويجب أن نعود»

وانحنى لداماريس «إنه سرور كبير أن نلتقي بك سينوريتا».

وساعد ايلينا على صعود الجواد، وقفز إلى سرجه بسهولة كفارس خبير. وحيا داماريس. وقالت ايلينا:

- وداعاً، سانتظر رؤيتك ثانية في رالفنسكراج.

ولم تتنازل روزيتا لأن تودعها. وعادوا من حيث أتوا. وسمعت صوت روزيتا يقول «ألم تعلموها كيف تلبس في تلك المدرسة السخيفة؟»

وسالت هيلين «من هم هؤلاء الناس؟» وأجابتها داماريس «إنها شقيقة خطيبي وأهلها، الذين لم يرى مناسباً أن يبلغني بوجودهم».

وتحول سخط داماريس إلى عمل، سئبت لتلك الجميلة الوقحة أنها تعرف كيف تلبس! واستأجرت سيارة وأخذت معها هيلين ودايفد. وذهبت إلى المدينة مسلحة بدفتر شيكاتها. وتحوّلت في مركز التسوق الجديد الجميل فيها. واختارت ثوباً أبيض اللون وفضي، طويل، فضفاض، فيه كثير من الحرير فوق الساتان، دون اكمام ويكشف عن الصدر والظهر، مرصع بالحلل الماسية، واشترت حذاء فضياً وربطة شعر فضية. ولم تستطع تفسير شوقها لمنافسة ابنة دوكوستا، بل كانت تشعر بأن تعبير روزيتا المزدري قد جرحها. وأكملت ملابسها بمعطف سهرة مخملي بأكمام طويلة، مزين بالفرو الأبيض.

صباح يوم عيد ميلادها، تلقت هدايا من اصدقائها، وقدم لها دايفد الصغير حذوة حصان فضية لتزيدها على اسورتها. وسألها:

- انت لم تتلقي مثلها من قبل... اليس كذلك؟ وستحبينها أكثر من الكل...

- أجل يا حبيبي، ساحبها كثيراً. وهي أكثر واحدة جالبة للحظ.

ووصلتها رسالة وبطاقة من سيلبست أخبرتها عن خطبتها وتمت عليها أن
تحضر حفل زفافها. وأرسل لها السيد بريستون تحياته كالعادة، أما مارك فلم
يرسل شيئاً، ولكن لا بد أنه سيقدم شيئاً لها خلال الحفلة، وربما يكون الخاتم
الذي طال انتظاره، وأخذت تشعر بالاضطراب حول تلك الأمسية. سيلتقيان
حقيقة بعد طول انتظار، وكيف سيرحب بها؟ وكيف لو أثبت أنه لا يطاق؟
ولكنها فكرت، محاولة إقناع نفسها، بأنه في النهاية من عائلة ترهران، ويجب
أن يكون هناك شيء مشترك بينهما. وإليها لم تظهر سوى الود والتقرب.
مظهرها بعد أن ارتدت ثيابها الجديدة، جعل ثقتها بنفسها تزداد، لأن المرأة
أظهرت أنها فعلاً جميلة، طراز الثوب الطويل أعطاها بعض الطول، وأبرز
استدارة جسدها. وكان لرباط الشعر الفضي تأثير كلاسيكي عليها وهو يشد
شعرها إلى الوراء، بينما بدت رقبتها وذراعاها بلون مشمسي باهت من أثر
الشمس، ووضعت الظلال حول عينيها بحيث تظهر أن أكثر اخضراراً. وصاح
دايفد وقد رآها في زينتها «أوه.. ريس.. انت تبدين كملكة الثلج».

ولسوء حظها، كانت السيارة التي أنت لتأخذها تذكير آخر بكل ما كانت
تحاول أن تنساه، لأنها من نفس ماركة ولسون السيارة التي كان يملكها
كريستيان. الرجل الذي كان يقودها لم تكن تعرفه، ربما يكون موظفاً جديداً.
وأخذ منها الحقيبة الصغيرة التي حضرتها لتمضية تلك الليلة هناك، ووضعها في
صندوق السيارة بعد أن فتح باب المقعد الخلفي لها. وضعها المنزل في الخلف
كان دلالة عما سيكون عليه وضعها في المستقبل. ولكن ما أن خرجت بها
السيارة عن الطريق الرئيسي، إلى الطريق السهل الذي يقود نحو المزرعة

حتى، أزالنا المناظر المألوفة كل تفكير من ذهنها. لم يكن الظلام قد حل بعد
وكان نور شفق أيلول يكشف عن كل أثر حبيب من الأراضي التي من حولها،
يعيد لها ذكرى طفولتها وجدها.

ومرت السيارة مسرعة عبر المزرعة، حيث كانت تعرف الجميع هناك،
وتوقعت أن يكون بعضهم في حفلة عيد ميلادها وأسعدتها هذه الفكرة. ثم
بدت الكنيسة الصغيرة ببرجها المربع، والمنازل البيضاء تحيط بها، وأخيراً
انعطفت السيارة إلى المدخل، وظهرت لها واجهة المبنى الحبيبة. كل نافذة
كانت تشع بالأضواء، تظهر من بين الستائر المفتوحة. لا بد أن السير مارك
يرحب الآن بكل الجيران الذين كان يرحب بهم جدها.

وتوقفت السيارة أمام باب المزرعة، التي كانت مفتوحة على مصراعها.
ونزل السائق ليفتح الباب لها قائلاً:
- سأحضر حقبتك سيدني.

وسارت نحو المدخل. وسمعت همهمة الأصوات وصوت الموسيقى
الناعمة، ووقفت عند الباب لتتنظر إلى منظر غير مألوف لها للقاعة الكبيرة
المربعة التي تغيرت كثيراً. ثرياً ضخمة كانت تتدلى من السقف المرتفع،
وكسبت الأرضية بالواح جديدة تحفي الأرضية الحجرية القديمة. كل ألوان
الازهار الصيفية الرائعة كانت مرتبة حول الجدران. وبدأ لها كل شيء غريباً.
وبدا الغضب يملكها. كيف يجزوه على تغيير كل شيء!

كان السقاء يجيئون ويذهبون عبر الردهة، يحملون الصواني المليئة
بالكوكيتل.

وظهرت مجموعة من الضيوف بينها وبين السلام التي تواجهها. واستقبلتهم

ايلينا، التي كانت تلعب دور المضيضة لمارك. وبينما كانت داماريس تقترب منهم، مر مجموعة من الرجال في طريقهم إلى قاعة الرقص بينها وبين ايلينا. ووقفوا جانباً ليسمحوا لها بالمرور. وهم ينظرون إليها بإعجاب. ثم تعرف إليها أحد الجيران الذي كانت تعرفه من أيام الدراسة، وصاح قائلاً:
- آنسة ترهران! هل هذا أنت حقاً؟
- أجل هذا أنا.

ومدت له يدها وهي تحاول تذكر اسمه، وهز يدها بترحاب وتطلعت إلى الرجال الآخرين. متسائلة من منهم هو ابن عمها مارك. وسمعت صوت ايلينا يقول:

- داماريس يا عزيزتي...

ولمحت داماريس من ورائها روزيتا، كانت تبدو جميلة جداً بشوب أسود مفتوح العنق وعلى كتفها شال اسباني رائع. كانت تقف بين رجلين في ثياب السهرة، أحدهم كان بيدرو، ولكن داماريس كانت تنظر إلى كل شيء عبر ضباب أغشى عينيها بالدموع، لأن واحداً كان غير موجود هناك: السير هيوغ تريهران جدها، التي كانت هناك لتحقيق رغبته، وتربط نفسها بوريثه، حتى يستطيعا معاً المحافظة على الإرث.

وتمتمت ايلينا: «كم تبدين جميلة، تعالي لتقابل مارك».

ولفت ذراعها على خصر الفتاة. وتطلعت داماريس من حولها بحثاً عن الرجل الفضي الشعر، الذي كانت تعتقد أنه ابن عمها، ولكنه كان قد اختفى. وقادت ايلينا نحو الرجل الأطول بين الرجلين اللذين كانا مع روزيتا، وكان يقف مديراً ظهره لهما، ورأسه منحني ليهمس شيئاً للأرجنتينية، ونادت

ايلينا اسمه، ونظر إلى الأعلى، وتقدم نحو داماريس وهو يمد لها يده.
- أهلاً بك يا ملكة الثلج. أرى أنك ارتديت أجمل الثياب للحفلة.
والتقت نظرتها المجفلة بالعينين الزرقاوين الجميلتين نكريستيان تريفور.
وشهقت قائلة «أنت؟»
- أجل يا داماريس.. أنا.. ابن عمك مارك.

٥ - ابن العم مارك

بينما كانت داماريس تصعد الدرج، وأفكارها مرتبكة، التقت بمديرة المنزل، السيدة غارث، التي كانت تنتظر وصولها بشوق. كانت قد تغيرت قليلاً: شعرها أصبح أكثر شبهاً وجسمها ممتلئ أكثر، ولكنها لا زالت تلك المرأة الحنون التي عرفتھا منذ نعومة أظفارها، وصاحت السيدة الطيبة: «أوه يا آنسة داماريس، أنا سعيدة جداً لرؤياك! ستنزلين في غرفتك القديمة، لا بد أن توم قد أحضر حقيبتك الآن، تعالي يا عزيزتي».

وقادتھا إلى غرفة النوم الصغيرة في آخر المنزل، وعند رؤيتها تدفقت عليها أمواج الذكريات. تحت بدا المنزل غير مألوف لها، ولكن هنا كل شيء كان كما تذكره تماماً. على هذا الفراش الضيق نامت ليالي طفولتها، الرف الذي يعلوه يحمل كل كتبها الحبيبة، بما فيها كتاب «موت آرثر». على الجدران كل الصور القديمة التي تحبها، النوافذ المغطاة بالستائر، تفتح، كما تعرف جيداً، إلى ناحية البحر.

وتابعت السيدة غارث كلامها: «اعتقدت أنك تفضلين أن تكوني هنا، على الرغم من أن السيدة دوكونستا كانت تريد أن تضعك في غرفة أمامية».

- أستطيع القول إنني سعيدة للعودة إلى غرفتي، ولكن هذا ليس إلا الليلة واحدة.

- أوه... يا آنسة... السيد قال إنك ستبقين هنا لعدة أيام.

- اصدقائي يتوقعون عودتي غداً.

لم تكن ترغب في إطالة بقائها هناك، فهي بحاجة لأن تكون لوحدها لتفكر وتعيد ترتيب أوضاعها. مشاعرها في تلك اللحظات كانت مشاعر غضب. فكريستيان أو مارك لم يكن عادلاً في لعبته، عندما التقاها أول مرة كان يعرف تماماً كل شيء منذ أن قالت له اسمها. لقد أتى متسللاً إلى رافنسكراج ليتعرف على ميراثه وعلى عروسه ووجدها جاهلة. وهكذا أرسلها إلى المدرسة لتصبح صالحة له، ثم أتى إلى فالمودن ليستقضي النتيجة، دون الكشف عن هويته. وقادها متعمداً للكلام عن مارك، وتفحص إخلاصها. وتمتع بخداعه لها. لقد كان يعتقد أن لا قلب لها وكان مصمماً على أن يظهر لها وكأنه من المرتزقة. ولكن إذا كان قد تخيل أنها مستسلم له طوعاً الآن، فسيجد قريباً أنه مخطيء. فما زال لديها بعض الكبرياء. ولن تدعه يربح لعبته.

دخلت معطفها، وصرخت السيدة غارث إعجاباً بجمال ثوبها:

- يا إلهي آنسة داماريس، لقد كبرت وأصبحت سيدة جميلة.

وابتسمت داماريس ساخرة بمرارة «إنها من صنع السير مارك».

- لو أن جدك يراك الآن، لكان فخوراً بك.

- أوه... أرجوك.

- ولكن السير مارك سيأخذ مكانه، سيجعلك تعيشين براحة إنه رجل

عظيم.

- أنا سعيدة لأنك تعتقدين هذا... لقد كنت أظنه أكبر عمراً.

- أنت لا يلزمك رجل مسن يا فتاتي، صحيح أن السير مارك ليس ولدأ، ولكنه أفضل هكذا، فالمكان بحاجة إلى رجل عالم بالأمور ويملك الخبرة لإدارته، لقد طال إهماله.

وبدأت داماريس ترتجف وقد أدركت السورطة التي وقعت فيها، حتى الآن كان ابن عمها غامضاً، إنسان ضبابي. وكانت قد كتبت نفسها على فكرة الزواج منه باتزان. ولكن كريستيان مارك، القوي والمقلق، كان نوعاً مختلفاً. وتذكرت كيف أنه في فالمودن لاحقاً بقدره الغازي، ولكنه لم يشر أبداً إلى أنه يحبها. وتركها تعود إلى جنيف مؤمنة بأنها لن تراه ثانية. لقد عانت العذاب وهي تسعى لخلق المشاعر التي أيقظها فيها، ولم يهتم أبداً، أو حتى يعيد النظر، بمشاعرها. وهو يعلم بأنها ستعود في النهاية إليه. في القاعة هنا، رأت الانتصار في عينيه بعد أن أجبرها على إنكار حبها له.

وأثناء قرع على الباب مع صوت مألوف: «هل استطيع الدخول؟» وبدأ قلبها يخفق. وفتحت السيدة غارث الباب وهي تقول: «أجل يا سيدي» وأزاحها مارك جانباً ودخل ليقف خلف الطيف الأبيض أمام المرأة. وقال: - لقد أتيتك بهدية عيد ميلادك. اظن انها ستكون رائعة مع ثوبك.

لقد نسيت ان اليوم عيد ميلادها. والتفت عيناه بعينيهما في المرأة.

- لقد قلت لنفسني إن من الصعب أن أجد شيئاً يماثل لون عينيك، لذا لم أحاول، ولكنني أعتقد أن هذا سيناسبك.

وأمسك بشيء لامع، وتقدم منها ليضعه على عنقها. وتوهج العقد الماسي بلون النار.

- إنه جميل جداً... ولكن ما كان يجب عليك... لا بد أنه غالي الثمن.

- أنا لست فقيراً حتى بدون رافنسكراج. في الواقع هذا العقد هو إرث عائلي. من غيري يهديك الجواهر؟

واستدارت لتواجهه، وهي تمسك بالطاولة وراءها بكلتا يديها.

- هل تحاول شرائني؟

- ألم أشربك بعد؟

والتفت للسيدة غارت وقال «تستطيعين الذهاب الآن» ولكنها ترددت، وقد هزها شعورها بالإخلاص، فضحك وقال لها مذكراً:

- الأنسة داماريس ستكون زوجتي.

- حسناً يا سيدي.

وخرجت، ولكنها تركت الباب مفتوحاً وراءها، ونظر مارك الى داماريس متفحصاً. وعيناه تجولان من رأسها النحاسي اللون الى حداثها الفضي وتعودان ثانية إلى وجهها.

- السيدة لوبرون قامت بعملها بنجاح معك يا عزيزي.

- انا سعيدة بأنك راضٍ، ولكنني لست راضية.

- لا؟.. ألم تتأكدي جيداً من المنزل الذي طالما فكرتي به؟ أولست سعيدة لاكتشافك أنني لست عمجوزاً؟ فأنا فقط فوق الثلاثين بقليل يا داماريس. مع أنني اعتقد أن هذا السن يبدو بعيداً عن سن المراهقين.

- أنا لست مراهقة. اليوم أبلغ العشرين، كما تعلم، وعمرك لا يهمني. ما لا يعجبني هو التكرار. هل كان من الضروري أن تخدعني؟

- الخداع كان بالألفاظ فقط. اسمي كريستيان مارك ترهيران من «كورويلز» وليس من «ويلز» هل هذا يستحق التوبيخ؟

- اجل.. لأنك استغلتي متعمداً، وأول ما التفتين لم تعطيني اسماً أبداً. لا «ويلز» ولا «كورويلز». لا بد أن ما وجدته على الشاطئ، صدمك عندما قلت لك من أنا.

- كان منظرك بالتأكيد غير متوقع. ولكن الذي صدمني أكثر إعلانك أنك مخطوبة لي.

- ولكنك تعلم شروط الوصية. ولهذا أتيت اليس كذلك؟

- أتيت لاكتشف ماذا ينتظري. ولكن الوصية لم تقلقي، كان من الممكن أن نجد طريقة نلتف عليها. ما أقلقني إصرارك على الزواج بابن عمك. على كل، قبل أن أتركك كنت قد قررت أن لديك إمكانيات تستحق التطوير.

وتملكها الغضب، كم تعاطى معها بكل برود وكانها مهر سباق، لو دربت جيداً قد تصبح يوماً فرساً للسباق، وتابع كلامه بهدوء:

- في فالموند، علمت كم كنت على حق، ولو أنك لم تكوني عمياء بذلك التصور الوالدي الذي اخترعته، لكنت خمنت من أكون. إيلينا تقول إن النشابة العائلي لا يمكن أن يخطيء.

- لم أكن أعرف أحداً من العائلة سوي جدي..

وبدأت تنفوس به، وقد رأت فيه الآن بعض الشبه بلوحات الرجال السمر الشبهين بوجه الصقر المعلقة في غرفة الطعام، أسلافها وأسلافه، المتغطرسين وقساء الطباع، ومن تعرف أنهم كانوا إما بحارة أو مغامرين. وقالت بحزم:

- لا فرق... لقد كان عملاً لثيماً. وأنا لست تحريماً. ولم أستطيع مطالبتك بإبراز هويتك.

وضحك وقال «أوه داماريس.. دعك من هذا.. هل كان كثيراً عليّ أن أشاهد الأرض قبل أن ألزم بها؟ ربما كنت ستغيرين رأيك، وعلى كل الغزل في الخفاء يجعل الرومانسية أجمل».

- ولكنك لم تغازلني، لقد غازلت سيلست.

- وغلطة من هذه؟ كان عليّ أن أطري إخلاصك لابن عمك مارك، ومع ذلك سأقول لك الآن إنك لن تجديني أبوياً أبداً.. ولكنني لم أكن مسروراً أبداً بتلك الفرنسية السمجة التي دفعتها عليّ.. إنها...

- أرجوك .. سيلبست صديقتي، أعز صديقة لدي، وستأتي لحفلة زفافي، وأنا ذاهبة لحضور زفافها.

- اوه .. يا إلهي .. أتمنى أن يأتي زوجها معها.

- وهل تعتقد أن هناك زفاف.

- طبعاً .. وكما تعلمين، هذه الليلة هي للاحتفال بخطوبتنا، وسأعلنها عند تناول العشاء، وهذا يذكرني بأن عليك أن تضعي هذا في يدك. وأخرج شيئاً من جيبه وتابع:

- أرجو أن يكون مناسباً، لقد تم تلميعه، قال لي السيد بريستون إنه خاتم خطبة عائلة ترهران، كان لوالدتك، وجدتك من قبل.

ولم تتحرك لتأخذه. فأمسك يدها ووضعها في أصبعها، وأخذ ينظر إليها مستفسراً:

- ما بك يا داماريس؟ لقد وافقت على هذا العقد .. أليس كذلك؟

عقد! وتسمرت عينها على الحجر الأزرق الناري للخاتم. إذاً هكذا يعتبر الزواج .. كما كانت تعتبره هي حتى الآن .. وكما قال، لقد اشتراها بثمن منزلها. لو أنه تكلم عن الحب لكان الأمر مختلفاً. حتى أنه لم يزرعج نفسه بالتظاهر بعاطفة لا يملكها أبداً. لقد قالت له منذ البداية إنها ستزوج ابن عمها مارك، ولم يكن عليه أبداً أن يجهد نفسه لخطب ود فتاة كان يمتلكها بالفعل. وقال بصوت يخلو من المعنى:

- أجل لقد وافقت، ولكن اعطني بعض الوقت لأعود على الوضع .. لقد كانت مفاجأة لي ..

وتحركات نحو الباب وسمعته يقول:

- أرجو أنها كانت مفاجأة سارة ..

- هذا ما أحاول تقريره ..

واستدارت إليه، وعيناها تتحداه. وأخذت تفكر .. اوه .. لا يا كريستيان مارك، لن أرمي بين يديك مثل الثمرة الناضجة، وقد اخترت انت الآن الكشف عن قناعك. قد تكون اشتريت موافقتي، ولكنك لم نشر حي وهذا يجب عليك أن تكسبه. وتابعت كلامها بيروود:

- ألا يجب أن ننضم لباقي الضيوف؟

ومشت بسرعة نحو الممر، ولم يلحق بها إلى أن وصلت آخر الدرج، حيث كانت ايلينا تنتظرهما. وسألتهما بقلق:

- أين كنتما؟ لقد بدأنا الرقص دونكما.

- لقد كان علي أن ألبس الخاتم لخطيبي، سوف ندخل الآن.

ودخلا الغرفة معاً، حيث لاحظت أن أصحاب المزارع وأصحاب النفوذ من الجيران كانوا مجتمعين هناك، مع زوجاتهم وبناتهم الكبار. ومرت داماريس حول الغرفة ببطء تسلط باليد على كل من كان واقفاً لا يرقص. وعرفها الكثيرون وهناؤها على مظهرها. وكانت مسرورة لأنها أدهشتهم. ثم طالبها مارك بأول رقصة فالس معها. وقال لها «لقد خطفت أنفاس الجميع» وردت عليه بخفة «أجل .. فالبطة البشعة تحولت إلى بجة جميلة. والفضل للسيدة لوبرون».

- انت قاسية على نفسك. فالجورية التي قابلتها عند الشاطئ، كانت تمتع النظر.

- مثل الماس الخام، والتي قررت أنها بحاجة إلى صقل.

- داماريس لا تكوني ساخطة. انت تعرفين أنك كنت محتاجة إلى ثقافة إضافية.

- والتي حاولت متابعتها حيث توقفت المدرسة. ماذا كنت فعلت لو أنني وقعت أسيرة سحر ك في فالوند؟ أكنت تخليت عني لأنني عابثة؟
- لم انس أبداً من أنت وما هو مقرر لك.
- فعلاً؟ ولكنك لم تتصرف كسيد نبيل معي. في الحقيقة أنا مندهشة منك سير مارك ترهرا! فقد نسيت هناك كما أمك كفارس.
- لم تكوني يومها تلك الصغيرة الباردة العواطف كما نحاولين الظهور الآن... حسناً يا ملكة الثلج... أقر أن خداعي قد ازعجك، ولكن عليك أن تستسلمي لي في النهاية.
واحمر وجهها ثم شحب، إنه واثق من نفسه ومنها، ومع ذلك فهي غير مستعدة بعد أن تدعن له. فهي بحاجة إلى تطمينات. بعض دلائل الخنان، الحب المتبادل، ولكن هذا الرجل الأسمر الذي يقود خطواتها الراقصة بمهارة يبدو أنه غير قادر على إعطاء الخنان.
وعندما انتهى الرقص، قال لها «علي أن أقوم بواجبي مع جيرانشا، وأنا متأكد أنك لن تفتقدي شريك رقص لك».
وكان هناك العديد من المعارف، أو هكذا قالوا لها، ليطلبوا منها منحهم شرف الرقص معها، وبدورهم عرفوها على ابنائهم الذين كانوا تواقين لمراقبتها. وألقت نظرة على مارك وهو يجاهد في الرقص مع الفتيات، والنساء الجميلات، ولكنها لاحظت أيضاً أنه ألزم نفسه بالرقص مع روزيتا أكثر مما هو مطلوب منه. وبدا أن جسد الفتاة الجميل يذوب بين أذراعيه وأن وجهها كان يعلوه تعبير الإثارة عندما تكون معه. إذاً فهي ضحية أخرى من ضحايا مارك، وأخذت الشكوك تغزو فكرها. هل يبادل مارك الارجنينية الجميلة المشاعرة؟ ولكنها نسيت كل هذا عندما أخذها مارك إلى طاولة العشاء، وأعلن هناك

وسط التهاوي عن خطوبتها.
ولم تنته الحفلة قبل ساعات الصباح الأولى. ووقفت داماريس الى جانب مارك ليودعا ضيوفها. وكان آخر المغادرين مستأجر ارض قديم، أخذ يتذكر السير هوغ عندما كان قوياً وداماريس عندما كانت طفلة، وعندما رحل أخيراً وجدت داماريس أن مارك قد اختفى. وتوجهت نحو غرفة الاستقبال وترددت قبل أن تدخل. لقد بدت فارغة إلى أن لاحظت خيال روزيتا من أحد النوافذ. كانت تتحدث إلى شخص ما لم تستطع داماريس أن تعرف من هو، وتتحدث بالإسبانية. هل هو مارك؟ وانسحبت داماريس بسرعة، ودعتها ايلينا من غرفة الطعام.
- تعالي يا عزيزتي لتناول فنجان قهوة، فأنت بحاجة له بعد هذه المسهرة.
ودخلت إلى غرفة الطعام لتجد ايلينا مسترخية على كرسي مريح، بينما بيدرو يتناول شراباً دافئاً.
ونظرت الى الغرفة التي كانت يوماً مألوفة لها، وهي الآن خالية من الضيوف، ورأت ان التغيير قد شملها أيضاً. فقد حل مكان المدفأة القديمة تقليد لها على الكهرياء. وحلت الستائر المخملية مكان القديمة على النوافذ، كذلك تغير الكثير من الاثاث.
وتقدم بيدرو منها وقال وهو يرفع كأسه «في صحتك سنيوريتا! وحق الله أنا أحسد مارك!».
وسألها ايلينا اذا كانت ترغب في شراب ساخن. وابتلعت داماريس غضبها لأنها غير ملمومين على ما يحصل، وطلبت كوباً من الحليب البارد. وشهق بيدرو قائلاً «حليب!» ثم ابتسم وأردف «هل هذا هو سر السورود التي على وجهك؟».
فابتسمت داماريس لهذا الاطراء وقالت «ربما». ولكن الورد يذبل.

وسألها ايلينا بلطف، وبدت أنها ترغب حقاً في مصادقتها:

- هل أنت تعب؟

- قليلاً...

لقد كانت تلك الليلة متعبة أكثر مما توقعت. وقدم لها الحليب. ولم تظهر روزيتا ولا مارك. وقالت داماريس بأدب:

- لقد كان كل شيء ممتعاً. لا بد أنك عملت بجهد. شكراً لك كثيراً.

- أجل، أعتقد أن كل شيء كان على ما يرام. لقد كان لقاءً مختلطاً، ولكن مارك قال إننا يجب أن ندعو جميع من له صلة بهذا المكان. لقد كان كالسيد الكبير... اليس كذلك؟ لقد تمتع بكونه اللورد الجديد للمقاطعة. وأنت بدوت جميلة جداً.

- شكراً لك... والآن... اعذراني فإني ذاهبة إلى النوم.

كانت باردة في قولها، اذ يبدو أن الجميع تناسى أنها وليدي المقاطعة منذ ولادتها. وها قد أصبح دورها ثانوياً. ونهضت ايلينا وقالت:

- طبعاً يا عزيزتي... سأتي معك لأتأكد من حصولك على كل ما تريدينه.

وبينا هما تقطعان الردهة، خرج مارك وروزيتا من الغرفة المقابلة، وبدأ مارك مرتبكاً، ولكن وجه الفتاة كان عليه علامات الرضى.

وقالت ايلينا وهي ترمق شقيقها باستنكار:

- داماريس تريد الذهاب للنوم.

- بهذه السرعة؟

وتقدم نحو داماريس ولكنها تراجعت نحو الدرج وقالت:

- لقد أصبح الوقت متأخراً جداً، أو بالأحرى باكراً. تصبحين على خير روزيتا... تصبح على خير مارك.

ولم تنظر إليه، وبدأ الكلام قائلاً «ولكن داماريس...».

ولم تلتفت إليه، بل أسرعت صاعدة الدرج. وفي الأعلى توقفت ونظرت إلى الخلف، ورأت مارك وهو يضع يديه في جيوبه وقد علا العبوس وجهه، وينظر إليها. ورأت أيضاً روزيتا تقترب منه وتدس يدها تحت ذراعه.

عندما أصبحت وحيدة في غرفتها، سارعت إلى النافذة وفحتها ودخل الهواء مباشرة من البحر إلى الغرفة واستطاعت أن تسمع اصوات الامواج من بعيد. وخلعت العقد الماسي ورمته فوق طاولة الزينة، ثم خلعت الخاتم ببطء واخذت تديره بين اصابعها... خاتم خطوبة آل ترهران... لم تكن قد شاهدته من قبل... ربما كان محفوظاً في خزانة المصرف. كان من المفترض أن تكون في حالة من السعادة لاكتشافها ان أول رجل مس عذرية قلبها هو الرجل الذي ستزوجه، ولكن هناك حبة في جنتها، على شكل فتاة بقسمات إسبانية وتمتلك كما هو ظاهر الأولوية في اهتمامات مارك. ولم يدهشها أنه لم يكن مستعجلاً للقاءها ولديه هذه الفتاة لثله. لم تكن تتوقع الحب، ولكنها لم تكن تتوقع ان تكون لها منافسة على زوجها. يبدو الآن أن مارك مستعد لتنفيذ الاتفاق، ومقاسمتها رافنسكراج، ولكن دون أن تكون لديه النية في إعطائها قلبه، فهو يعتبر أن هذا ليس جزءاً من الاتفاق. كان من حقها أن تعترض على علاقته بروزيتا، ولكنها نصورت النظرة الساخرة التي ستبرز في عينيه عندما سيشير إلى أنها كانت مستعدة لقبول ابن عم مجهول، دون النظر إلى ارتباطاته، في سبيل الاحتفاظ بالإرث. صحيح أن روزيتا ستسافر، ولكن مارك يمتلك مزرعة مجاورة لمزرعة عائلة دوكوستا، وسيذهب دائماً لزيارة المكان وزيارة روزيتا. وهمست لنفسها قائلة:

- اوه.. يا جدي.. لم تكن تدري ماذا فعلت. لقد بعثني لرجل يحب امرأة أخرى.

وألقت بالخاتم قرب المقعد الذي اشتراها به مارك، كما قال، واندست في الفراش وهي تشعر بالقلق.

ايقظتها السيدة غارث وهي تدخل اليها الفطور. ولأنها شابة، وصحتها جيدة، وتعبة فقد نامت نوماً جيداً على الرغم من روحها القلقة. ونظرت إلى ساعتها وصرخت «يا إلهي! الوقت متأخر جداً!».

- لم يستيقظ أحد بعد. ما عدا السيد، لقد ذهب إلى لانكستون في عمل. هؤلاء الغرباء، إنهم لا يستيقظون، ولا ينامون أيضاً. سيعود السير مارك وقت الغداء، وترك لك معي كلمة، إذا كنت تخين أن تركي الخيل معه بعد ظهر اليوم.

- ولكنني كنت أنوي العودة إلى بوسكاسل هذا الصباح.

- لا نستطيعين ذلك يا آنسة. فالسيارة مع السير مارك. اوه.. يا آنسة..

من الأفضل أن تبقي هنا وترعي شؤونك

- ماذا تعنين؟

- يا آنسة.. لا يجب أن أقول شيئاً.. ولكننا جميعاً نريد عودتك إلى هنا.

تلك المرأة الأجنبية الساقطة لا يمكن الوثوق بها.

وخرجت السيدة غارث. واستلقت داماريس على الوسادة. إذا حتى العمال

في المزرعة قد لاحظوا الوضع! وشعرت بالآلم والإذلال. وحاولت جهدها أن

تأكل شيئاً، خوفاً من أن تجرح إحساس السيدة غارث إذا لم تفعل، ولكن

الطعام كان من غير طعم. هل تستأهل حتى رافنسكراج تضحياتها بكبرياءها؟ وهل من الممكن أن تتغاضى عن هذا الوضع الثلاثي؟ وتذكرت بابتسامة

مرحفة أن سيليست اقترحت عليها وضعاً مماثلاً لعلاقة أدوارها مقلوبة. وهذا أمر لن تقبل به أبداً.

وقرع الباب ودخلت ايلينا ترتدي ثياب النوم، وشعرها الاسود الكثيف في ضفائثر. الطابع الإسباني ظاهر عليها أكثر من شقيقها، فمارك كان يشابه عائلة ترهران، بينما هي لها البشرة البيضاء بلون الكريم والعينان السوداوان اللامعتان لأهل امها.

- هل نمت جيداً يا عزيزتي؟

- اجل.. شكراً لك.

وجلست ايلينا عند نهاية السرير وقالت:

- من المؤسف جداً أننا لم نلتق من قبل. كان يجب عليّ أن أعرف عمي

الكبير هوغ. فمن كل ما عرفته يبدو أنه كان رجلاً عظيماً.

- لقد كان عظيماً. لقد انقلبت الدنيا في عيني عندما مات.

ووضعت ايلينا يداً حانية فوق يدها. وقالت:

- لقد تخلى عنا عندما تزوج أبي من ارجنتينية. كان متعصباً جداً. ولم يكن

ذلك الزواج ناجحاً. فقد هربت أُمي في النهاية، ألم تعرفي بهذا؟

- كل ما عرفته عنكم، أن لديّ أبناء عم في الارجتين.. أنا.. أنا آسفة.

هل كنت كبيرة عندما.. ذهبت؟

- كنا في سن المراهقة، ولذا اعتقدت أننا نستطيع تدبير أمرنا بدوئنا، ولكن

ذلك صدم مارك كثيراً. لقد كان يحبها، وشعر أنها هجرته. اذا وجدت مارك

قاسياً وساخراً، فهذا هو السبب. فهو يجد صعوبة بأن يحب ويثق بأحد ثانية، ولكنه بحاجة للحب.

- الا نحتاجه كلنا؟ ولكن مارك لا يحتاج للحب مني. فكل ما هو مهم

به . . رافنسكراج .

وبدت ايلينا مندهشة : «وما يجعلك تظنين هكذا؟ لقد رغبت دائماً في أن يتزوج ويستقر، كان دائماً مثل المجنون، يتجول في كل العالم . ولكن عندما علمنا بموت والدك، علم أنه قد ورث في الواقع اللقب وأصبح مهتماً بكورنويل . لقد كان والذي يتحدث كثيراً عنها . واعتقد أنه آخر زواجه إلى أن يصبح لورداً إنكليزياً . وعندها يعيش هنا .

وضحكت داماريس ضحكة قصيرة : «مسكين مارك . لم يكن يعتقد أنه سيرثني أيضاً . هل كان يعلم بوجودي؟» .

طبعاً . . ولكن كونك فتاة لا يمكن لك أن ترثي اللقب . . لقد تصورنا أن . . .

وتوقفت، وقد بدا عليها الحرج . وأكملت لها داماريس :

«لم تصوروا أن جدي سوف يشترطني، على الأقل بالطريقة التي قام بها .

لقد كانت الطريقة الأفضل . على الرغم أن من المؤسف أنك لم تلتقي بمارك قبل الآن، لأن عمي الكبير كان ينوي دعوته للإقامة معه .

اجل كان ينوي، ولكنه لم يعرف بأنه سيموت فجأة . لقد . . . تحدث معي حول الأمر .

لقد ترك رسالة لمارك بوصيه بالعناية بك، ومن الطبيعي أن يشعر مارك

بمسؤوليته عنك، وبما أنك وافقت على الزواج منه، وهو بحاجة إلى زوجة بريطانية لتكون سيدة القصر، فقد بدا الترتيب مناسباً جداً ولا أرى أي سبب

لعدم نجاحه . فالعديد من الزيجات المدبرة تنجح .

كانت داماريس خلال كلامها تفكر بشيء آخر . فسألتها :

«متزل زوجك قريب من منزل مارك أليس كذلك؟ أعتقد أنكم تشاهدون بعضهم كثيراً .

ورمقتها ايلينا بنظرة مرتبكة وقالت :

«المسافات هناك أكبر من التي هنا، أميال وأميال من السهول . سنسافر قريباً . وعندما نعود لحضور زفافك، ستبقى روزيتا هناك . لم أكن أريد احضارها معي، إلا أنها جنت كي تشاهد إنكلترا، وكنت أعتقد أن العلاقة القديمة قد انتهت .

هل تعنين أنه كان هناك شيء بين مارك وروزيتا؟

بعض الاستلطاف فقط، ولا شيء جدي . . . أنت تعرفين الأمور بين الشبان .

لا . . . أنا لا أعرف . لم أرى بهذه الطريقة .

وضحكت ايلينا بصعوبة وقد أدركت أنها تورطت بالكلام وقالت :

«أنت لا زلت صغيرة ورومانسية . إذ لا يتزوج الإنسان حبه الأول دائماً .

وأنا واثقة أنك ومارك سوف تتفقا .

وربت ايلينا على يدها وتابعت :

«سوف تتركبان الخيل أنت ومارك بعد الظهر، أليس كذلك؟ إذا لم تجلبي معك ثياب ركوب، سأعيرك .

شكراً لك . .

ولم يرجع مارك إلا بعد أن بدأ الغداء . وصدمت داماريس عندما رآته

يجلس مكان جدها على الطاولة، ومع ذلك بدا واحداً من آل ترهوان . وعلى

الجدار من خلفه، لوحة له، وقد بدت فيها عيناه زرقاوان تحت حاجبيه

السوداوين، وبدا التشابه كبيراً، لقد كانت عمياء إذ لم تلاحظ هذا من قبل .

وعندما طلبت داماريس السيارة لتوصلها إلى حيث تسكن عند المساء رفع

مارك حاجبيه وقال :

- انت مستعجلة على الذهاب . لقد اعتقدت أنك ستمضين بضعة أيام معنا .

- لم اكن أعلم بهذا . ولم أحضر نفسي .

- ألا يمكن الاستغناء عنك هناك ؟ اعتقدت أنك تعملين بحريتك .

- لقد توليت بعض المسؤوليات .

وأدارت روزيتا نظرتها الوقحة إليها وقالت بازدراء :

- لا تقولي إن عليك ان تخدمي في ذلك المحل السخيف . ان هذا يحط من قدرك .

- ابدأ ، هذا غير صحيح ابدأ . في الواقع أجد سروراً عظيماً في العمل .

وهل تتوقعين مني أن أجلس لالعب بأصابعي خلال الاثني عشر شهراً القادمة ؟

ونظر إليها مارك ، وقد علم أنها تحداه وقال :

- ربما لا حاجة لنا للانتظار كل هذا الوقت إذا كان الانتظار مملاً .

- لن أضجر ابدأ . وأفضل أكثر أن التزم بالاتفاق الاصيل .

وضحكت روزيتا بخبث ، وقالت ملمحة :

- من الممكن حدوث الكثير خلال سنة .

فابتسمت داماريس لها بعدوبة وقالت موافقة على كلامها « أجل ... هذا ممكن » .

وارتدت داماريس ثياب الفروسية ، ونزلت من غرفتها وهي تشعر ببعض الخوف ، لتجد مارك ينتظرها وهو ممسك شيئا وحصان آخر أسود كبير . وصهلت شيئا عندما تعرفت على سيدتها ، وأعطتها داماريس تفاعاً أحضرتها لهذا الغرض . وساعدها مارك على امتطاء الفرس ، وانطلقا معاً . وفوق السهل الواسع ، حثت شيئا على الركض ، وأخذت تقفز فوق الجدران والاسيجة بسهولة . وصرخ مارك من خلفها « أتسابقيني ؟ » ، وبدأ الانسان في السباق ، ولكنها لم تستطع مجاراته ، فهو فارس ممتاز . وعلى قمة المنحدر توقف مارك وانتظر . وتوقفت بالقرب منه ، وقد بعثر الريح شعرها ، ووجهها أحمر من جراء التمرين . وراء المنحدر يمتد الخط الساحلي يفصله بحر هادئ شديد الزرقة ، يعكس السماء ، ولكن زرقة لا تضاهي زرقة عيني مارك . واستدارت على سرجها لتتأمل الى رافنسكراج وهي تنتشر امامها ، قطع من الحقول الخضراء ، تحدها الشجيرات ، ومزارع بيضاء بسقوف رمادية مائلة ، الأبقار الحمراء والخراف البيضاء ، لا ينفصها سوى الغابات وقالت له :

- جهدك في دراسة الغابات كان دون فائدة .

- بما أنني قضيت معظم عمري على اراض لا أشجار فيها فإن الأشجار تثير اهتمامي . إضافة إلى أنني كنت بحاجة إلى عذر كي أذهب إلى فالمونند .

- ودونالد ، اين وجدته ؟

- اوه ، لقد وضعت إعلاناً في الجرائد لهذا الغرض . ما الأمر يا ملكة الثلج ؟

لم تفعل سوى تعنيبي منذ وصولك إلى هنا .

ومالت الى ذكر روزيتا ، ولكنها تراجعت ، فقد يظن أنها تغار ، ولن تعطيه

مجالاً للرضى بالأمر. وانحنى وهو على ظهر سنامه لينظر في عينيها، وتغمم من أين لك هاتين العينين؟ عيون عائلة تهران إما زرقاء أو سوداء؟

- وكيف أعرف؟ أظن أنها من تنابيل قديم.

- أعود الى فيفيان ساحرة مارلين.

- اوه... لا تكن سخيلاً. أنا عائدة الى المنزل.

وهمرت شيئا، ولكنه سارع للإمساك بلجام الفرس.

- ولم العجلة؟ هل انت خائفة من وجودك لوحده معي؟ ستمضين ما تبقى من عمرك برفقتي، لذا أليس من الأجدر أن تتعري علي أكثر؟

- أعرف ما يكفي... والباقي يمكن أن ينتظر.

- انت حادة وباردة!

- اوه... وما يهمك؟ لم نظاهر أبداً أننا سنتزوج من أجل أي شيء سوى المصلحة المشتركة، اليس كذلك؟

- وهل هذا صحيح؟ اتعرفين يا داماريس، لم أكن لأصدق أبداً أنك ستعامليني هكذا.

- كنت تتوقع طفلة مطواعة، وقد كيّفنها لك جيداً تلك المدرسة التي أرسلتني إليها، ولكنني لن أدعك تستأسد علي!

وترك لجام فرسها وارتمى الى الخلف وقال بهدوء:

- انا لا أريد أن أستأسد عليك.

- إذا... لا تضايقني أكثر من اللزوم. ولا حاجة لك للدعاء، فأنا أعرف أنك لن تتزوجني لأجل الحب.

- الحب؟ وما هو الحب؟

وبدأت شيئا بالتعمّل، وردت عليه داماريس بفضفاضة:

- إنه شيء لن تفهمه أبداً!

وتذكرت متأخرة أن ايلينا أخبرتها أن هذا الرجل قد أصيب بالالام من جراء

خيانة أمه لحبه لها، وأن عليها أن تتحدث معه بلطف أكثر، ولكن هذا لا يعطيه الحق بإيلام الآخرين، كما يؤلمها. وتركت العنان لفرسها، وانطلقت

تجري مع الريح. وسمعت من ورائها رعد الجواد الأسود، واعتراها نوع من الرعب من تلك الملاحقة. وحشت شيئا على الإسراع أكثر، ولم تخفف من

سرعتها إلى أن شددت لجامها في باحة الاسطبل.

وأقبل السائق توم ليأخذ فرسها. ووصل مارك، وحاجباه السوداوان مقوسان بتقطعية شديدة، وصرخ بها، وهو ينظر الى جنبي الفرس اللاهثة:

- اليس عندك تفكير سليم حتى تركضي بهذه السرعة؟

وسارعت داماريس الى توم تسأله بقلق، وقد ادركت أنها بذعورها، قد أنهكت الفرس «هل أذبتها؟»

- ستكون بخير يا آنسة، ساجفها جيداً وألفها ببطانية إلى أن تبرد...

وابتعد بالفرس، ولحقه مارك بجر حصانه. وركضت داماريس إلى داخل المنزل لتغتسل وتغير ثيابها. واغتسلت، ثم خرجت من الحمام الى غرفتها،

وطوت ثوبها الابيض بحذر ووضعته في الحقيبة. وأخذت تفكر. مارك ذلك الغريب، الأسمر، ذو الشخصية المرعبة، الذي يمسك بمستقبلها بين يديه

القويتين، قادر، على تحطيم قلبها، وسيفعل. ولكن قد لا يكون الأمر هكذا. فهي مخطوبة له فقط، ويمكن لهذا الرباط أن ينقسم. لقد قبلت بالأمر لأنها

تريد أن تعيش في رافنسكراج، ولكنها الآن له وليست لها، ويستطيع أن يفعل بها ما يشاء، مهما اعترضت، وهو سيد المكان، وسيدها. وهي لا تريد سيدياً

بل زوجاً. وبما أنها قابلته الآن، وقد كان مجهولاً لها، فقد أدركت نوع العلاقة التي ستعيشها معه، وتساعد الدم إلى وجهها. فالرغبة دون الحب كانت تشير اشمزازها، فلا بد أنه قد يتصورها روزيتا وهي بين ذراعيه.

وأقبلت خادمة تدعوها لتناول الشاي، وهبطت إلى غرفة الجلوس الصغيرة، حيث كانت كل الأشياء القديمة لا زالت فيها. ووجدت روزيتا تجلس في مقعدها المفضل، ويبدو مستلق على الصوفا. وإيلينا تصب الشاي، إنهم مجموعة عائلية، ولكنها لا تنتمي إليهم، فقد شعرت أنها غريبة. ولاحظت ببعض الراحة أن مارك ليس موجوداً، وأجابتها إيلينا على نظرتها المتسائلة:

- مارك لا يتناول الشاي عادة إنها عادة انكليزية لم يكتسبها بعد، ولا زوجي كذلك. بما أنك تقولين إن عليك الذهاب فالسيارة ستكون حاضرة عند الساعة السادسة، ولكن يجب أن تعود لي لئلا قبل سفرنا.

ووقفت روزيتا وهي تقول «سأخرج قليلاً فأنا بحاجة إلى تمرين، وبما أن الخيول تعب، فسأتمشى. وداعاً آنسة ترهران عندما أعود ستكونين قد ذهبت» وعندما غادرت الغرفة قال بيدرو «ماذا أصابها؟ إنها لا تحب المشي».

وقالت داماريس «لا بد أن تعب شيئا قد أزعجها، وأنا أسفة، ولكن الفرس لي... على كل الأحوال» وقالت إيلينا موافقة «نعلم هذا، ولو كنا سنمكث هنا كثيراً لاشرينا لها فرساً، وأنا أسفة لأنها استخدمت فرسك للركوب» وأجابت داماريس بسرعة «لا بأس فالفرس كانت بحاجة للتمرين». لم تكن الفرس ما أزعج روزيتا. ومارك استمر في الغياب. وعند السادسة والربع ذهبت داماريس إلى الاسطبل لتري إذا كانت شيئا قد استعادت نشاطها. ووجدت نوم هناك يتفحص السيارة وقال لها:

- هل انت جاهزة للذهاب الآن يا آنسة؟

- وهل ستوصلني أنت؟

لقد كانت تتوقع أن يوصلها مارك بنفسه. وأجاب نوم:

- إنها أوامر السيد. سأحضر لك حقيبتك.

- حسناً، ليس لدي سوى وداعهم.

وانجبت عبر الحديقة مختصرة الطريق، ولم تكن اصوات قدميها مسموعة، وعند استدارة بعض الشجيرات، توقفت وكأنما اطلق عليها النار.

على احد جوانب المرج الذي كانت تقطعه، كان هناك فتحة بين الشجيرات الطويلة، تكشف عن مربع مخفي هو كناية عن ساعة شمسية قديمة، وهو مكان كانت تلعب فيه وهي طفلة. وعبر الفتحة استطاعت أن تری شخصين متقاربين، وسمعت صوت روزيتا وهو مليء بالعاطفة تقول:

- ماركو... من المستحيل عليك أن تتزوج تلك الفتاة المضحكة. أنت تعلم أنني أحبك، وأنا زوجتك الحقيقية وليست هي... نحن نفهم بعضنا... أوه يا حبيبي...

وغيرت كلامها الى الاسبانية، ولم تستطع داماريس فهم رد مارك لانه كان بالاسبانية ايضاً، ولكن صوته الخفيض كان يحمل الكثير من العاطفة.

وركضت مبتعدة. في فالوند كانت تعتقد أنها تحبه، ولكنه لم يتحدث إليها بمثل هذه العاطفة التي سمعته يرد بها على روزيتا. وأدركت بتعقل أنها ستدمر حياتها لو أنها جئت بما فيه الكفاية لتربط حياتها بمارك، فالغيرة قد تستمر حتى ولو أن الحب مات، ولو أنها فقط لا تهتم، تستطيع ان تقبل بهذا الوضع دون أن يتحطم قلبها. ولكنها مهتمة. فلمسة مارك لا زالت تثيرها، رغماً من أنها

تحتقره وتكرهه . والاستسلام له سيكون إذلالاً كاملاً لها . حتى من أجل رافنسكراج سيكون هذا الثمن باهظاً، والمزرعة قد تغيرت، والمنزل لم يعد يعني لها ما كان يعنيه في حياة السير هيوغ ترهران . ولن يبقى عليها سوى أن تخلص نفسها من هذا الوضع اليائس . فروزينا على حق فالزواج من مارك ترهران مستحيل . . .

٦ - هروب

وصعدت مسرعة إلى غرفتها، فتشت في عمق الحقيبة، وأخرجت اللعبة التي تحتوي العقد الماسي منها . ووضعتها على طاولة الزينة، ثم نزعَت الخاتم من أصبعها . . . وواجهتها فكرة سيئة . . فالأشياء هذه ثمينة جداً لتتركها هكذا لتفري الخدم . ولكنها لن تأخذها معها، كما أنها لا تريد أن تثير مشكلة بردها إلى إيلينا أو مارك . ستؤجل المناقشات وتوجيه الاتهامات إلى وقت آخر حيث يكون أصدقاؤها من حولها، وقد تطلب من السيد بريستون أن يبلغ مارك بقرارها، وفتحت الجارور ودست اللعبة والخاتم تحت كومة أوراق كتابة بقيت هناك من أيامها الماضية . شخص ما في يوم ما سيخرج هذه الأشياء من مكانها وفيها بعد، إذا تذكرت، ستأكد من إبلاغ مارك بمكان المجوهرات . وأعادت إقفال حقيبتها وتقدمت نحو النافذة لإلقاء نظرة أخيرة منها وقالت بصوت مرتفع «سامحني يا جدي، ولكنك كنت رجلاً فخوراً بنفسك، ولا تريدني أن أشارك زوجي بامرأة أخرى» . وقرع ثوم الباب، وسألها إذا كانت جاهزة، فأعطته الحقيبة، ونزلت لتجد إيلينا ويبدرو بانتظارها . وقالت إيلينا متعجبة :
- ولكن أين هو مارك؟ يبدرو، أذهب وابحث عنه .
- أرجوك لا تفعل . . أنا . . لقد شاهدته في الحديقة وودعنا بعضنا . . . إنه . . إنه مشغول .

وأسرعت لتصعد السيارة، وهي تدرك أنها ينظران إليها باستغراب.
وعندما ابتعدت السيارة عن الأنظار التفتت ايلينا الى زوجها وقالت:
- ماذا حدث؟ هل تشاجرا؟
- إنها عنيدان. فقد ولدا قاسيين.

ورمقته ايلينا بنظرة غاضبة، فقد لاحظت بوضوح غياب مارك وروزيتا.
- من المؤسف أنك لا تستطيع ضبط شقيقتك. والمؤسف أكثر أننا لم نتركها
هناك.
هز بيدرو كتفيه ولقد أصرت على المجيء. ولكن عندما نعود سأخطبها
للمانويل راموس، لقد أن لها أن تتزوج.

- كان يجب عليك أن تفعل هذا قبل الآن. اعتقد أنك تأخرت.
عندما شاهدت هيلين داماريس في المنزل قالت مستفسرة:

- حسناً. كيف تم الأمر؟.. تبدين مرهقة.

- ليس هذا عجباً، لم أنم قبل الرابعة صباحاً.

ونظرت هيلين الى يدها الخالية من الخاتم.

- أين هو؟ بالتأكيد قد ألبسك خاتماً.

- لقد تركته هناك... أنا... لقد غيرت رأيي. أليس هذا من حق المرأة؟
كاري... يجب أن أذهب غداً لأرى السيد بريستون. أريد أن أعرف وضعي
إذا لم أتزوج مارك.

- إذاً، لقد أعدت التفكير بالأمر... ألم يكن السير مارك كما توقعني؟

- إنه مخادع أكثر من أي إنسان. وقد قررت أنني لن أكون سعيدة معه...

هل تعتقدين أن بإمكانك إبقاء فرس في غرفة الغسيل؟

- توقفي لحظة! وأين بإمكانك بناء الاسطبل؟

- هذا يتوقف على السيد بريستون. قد أتمكن من استئجار بناحة في مكان

ما.

- إذا ستعيشين معنا بصورة دائمة؟

- إذا كنتم تقبلون بي.

- وهل أنت بحاجة للسؤال؟

مكتب السيد بريستون، بولدارك، وبريستون، يقع في مبنى في شارع
ضيق. ودخلت رأساً إلى مكتبه، وتحرك السيد بريستون من خلف طاوخته
لتحييتها. وتبادلا التحيات، وأجلسها على مقعد من الجلد ثم عاد إلى مكانه
ونظر إليها متفحصاً عبر نظارته.

- حسناً يا عزيزتي... ماذا حدث لتأتي إليّ مسرعة؟ لقد قلت إن المسألة

ملحة.

وأخبرته كل شيء، وتجمد وجهه بالحيرة وهي تقص عليه القصة التي لم
تذكر فيها اسم روزيتا. وقال محتجاً بعد أن انتهت:

- ولكن، يا فتاتي العزيزة، لقد اعتقدت أن كل شيء قد اكتمل. السير
مارك كان هنا يوم أمس لمناقشة الترتيبات.

- لقد خدعني السير مارك.

- هيا... هيا يا فتاتي. لا بد أنكما تشاجرتما كالعشاق عادة... وضحكت
داماريس بمرارة وهي تركز على كلماتها:

- صدقني... ليس هناك حب مفقود بيني وبينه. في الواقع عواطفه مرتبطة
بشخص آخر... وبناء على هذه الظروف، اعتقد أن الزواج منه سيكون غير
أخلاقي.

وتجهم وجه السيد بريستون، وقال بلطف:

- لقد كنت بعيدة كثيراً عن الأنظار يا داماريس، ولا تعرفين شيئاً عن
الرجال. والسير مارك رجل راشد، ولا يمكن أن تتوقعي لرجل يمثل عمره أن
يكون دون ارتباطات سابقة، وسيتغير كل شيء بعد أن يتزوج طبعاً.

- لا أستطيع أن أكون متأكدة من هذا . إنه نصف أسباني . أليس كذلك؟
 - أمه كذلك ولكنك تعرفين هذا . وما الفرق؟
 - اللاتينيون غير مخلصين .
 - وارتبك السيد بريستون وأجابها بحدة:
 - السير مارك هو وصيك .
 - لا احتاج إلى وصي بعد الثامنة عشر . لذا فليس له حق قانوني علي .
 - لقد دفع مصاريف تعليمك .
 - كنت أخشى هذا . ولكن تعليمي كانت فكرته وليست فكرتي . كنت
 أفضل عدم الذهاب إلى هناك .
 - وماذا تقترحين بالضبط أن نفعل؟
 - كما قلت لك أنا مستعدة لتأخذني عن المطالبة بـرافنسكراج . أظن أن لدي
 دخلاً يكفي ، وإذا لم يكن لدي ، فسأبدأ عملاً أعيش منه .
 - اعتقد أن دخلك يكفيك إذا لم تسرفي . وعندما تبلغين الواحدة
 والعشرين ، سيكون الرصيد كله في تصرفك .
 - عندها أستطيع أن استثمره في عمل ما .
 - لا بد أن الأنسة كارو قد أثرت عليك . إنها لم توافق أبداً على وصية السير
 هيوغ .
 - لم تؤثر علي . ولكنها عرضت عليّ منزلاً أقيم فيه . وهذا ما أنا بحاجة
 إليه . أحب أن آخذ أغراضني في المزرعة . كتي ، صوري ، وفرسي .
 - هذا أمر معقول تماماً . وأظن أن السير مارك سيكون كريماً . ولكنك
 خطوات خطوات متقدمة كي تتراجعي الآن . لقد أعلنت الخطوبة ، وستتشر في
 كل الجرائد المحلية .
 - أجل اعتقد هذا . يجب أن نترك الأمر قليلاً ، ثم بعد ذلك نستطيع أن

نذيع خبراً صغيراً جداً ، نقول فيه إن الزواج لن يتم . على كل كان مقرر أن
 يتم بعد سنة .
 - حسناً يا داماريس . . سارسل لك تفصيلاً كاملاً عن مدخولك بعد أن
 اتحدث مع السير مارك . أنت مستعدة لتسوية ما كما اعتقد . فيما يتعلق
 بحصتك من الأملاك سأطالب بأغراضك الشخصية وفرسك .
 وتنهدت بارتياح وقالت «هناك شيء آخر . . أريدك أن تدبر كل شيء عني ،
 فأنا لا أريد رؤية السير مارك» .
 - أتعنين أن الخطبة لن تفسخ حسب اتفاق مشترك؟
 - لا . . أريدك أن تبلغه ما قلته لك . أريد منك . . الحماية .
 - اتركي كل شيء لي . مع أنني لن أعود وصياً عليك ، ائمني أن أبقي دائماً
 صديقاً لك .
 - شكراً لك . على الأقل لم يخطئ جدي بنظرته إليك . أعلم أنني أستطيع
 دائماً أن أثق بك .
 عندما خرجت إلى الشارع شعرت بالسعادة . لقد أصبحت أخيراً متحررة
 من ظل ابن العم مارك . فقد سمحت له لمدة طويلة أن يمسك بمستقبلها . ولن
 تفكر بـرافنسكراج ، مع أنها ستبقى حيث هي . وعندما يذهب مارك إلى
 الأرجنتين . ستركب فرسها إلى هناك وتبادل الحديث مع السيدة غارث ،
 ولكنها لن تذهب إلى الشاطئ ، فقد أفسد عليها المكان . لن تستطيع ثانية
 دون أن تتذكر لقاءهما الأول . ويجب عليه أن يبحث عن سيدة ملائمة للقبه ،
 ولن يفتش في مكان بعيد . وتنهدت بحسرة ففكرة أن تكون روزيتا سيدة
 رافنسكراج شيء لا تستطيع التفكير فيه .
 عندما عادت إلى المنزل أخبرتها ماري أن السير مارك ترهران حضر لزيارتها

خلال غيابها. لا بد أن السيد بريستون اتصل به فوراً بعد أن غادرت داماريس مكتبه، ولم يضع الوقت ليحضر ويطلب منها تفسيراً. وكانت شاكراً لأنها لم تلتقي به. وقالت ماري:

- إنه رجل وسيم وجميل، ولقد قلت له إنك خرجت مع دايفد، وبالطبع اعتقد أن دايفد هو صديقك، وهذا ما قصدته.

- حسناً إن هذا حقيقي. إنه صديقي. أفضل صديق لدي ليس كذلك يا صغيري.

وأخذت تفكر ببعض الفزع بأنها متفائلة جداً لتتصور أن مارك سيتقبل قرارها بسهولة. فهو متغطرس جداً، ولا يتحمل أبداً عدم نجاح خطفه، أو أن يسمح لنفسه أن يخذل على يد محام. ولكن عندما يبدأ غضبه سوف يدرك بالتأكيد أنها قد اتخذت السبيل الوحيد الممكن للخروج من المأزق. لذلك فسيتركها بسلام. وبرزت لديها فكرة:

- هل كان لوحده؟

- لا. لقد كان معه فتاة جميلة، تلك التي أركبت دايفد على الفرس. إذاً... لقد كان من الوقاحة بحيث يجلب معه روزيتا. هل يظن أنها عمياء لا ترى ما يجري حولها؟ وتملكها الغضب، إذا عاد ثانية، ستقول له دون مراعاة لأي شيء رأيها بهذا الأمر.

بعد أن صعدت داماريس إلى غرفتها لحقت بها هيلين، بينما كانت تحضر الفراش. لم يكن هناك مكان سوى للسرير وطاولة زينة صغيرة وكروسي. ومعظم ثياب داماريس كانت معلقة في الممر. وقالت هيلين وهي تجلس على المقعد:

- المكان ضيق عليك هنا

- أنا لست كبيرة الجسم. ولم يكن لديّ أبداً غرفة نوم كبيرة. غرفتي في المدرسة كانت محراب راهبة، مناسبة لي ليس كذلك؟

- هل أنت أكيدة أن هذا ما ترغبين به؟ داماريس، أنت تعلمين أنني لم أوافق أبداً على خطط السير هيوغ لك. ولكن هل أنت أكيدة بأنك اتخذت القرار المناسب؟ فأنت تبدين غير سعيدة.

- بل أنا سعيدة تماماً...

- ماري تقول إن السير مارك جميل جداً، وإنه جذاب.

- أجل وبشكل كبير وهذا لمصلحته... ماري... أنا... لقد قابلته مرتين من قبل... لقد ادعى أنه شخص آخر. لم يكن مستعداً لشراء فتاة جاهلة مثلها كنت، وعندما قرر أخيراً أنه يستطيع العيش معي ضبطته يطارح فتاة أخرى الغرام. تلك الجميلة التي قالت عنها ماري، وعلاقتها كانت منذ زمن بعيد. ولكنه مهتم بك.

واستدارت داماريس في مقعدها لتواجهها، وعيناها تلمعان وقالت بغضب «أنا أكرهه! وصدتها مربيتها قائلة «لا تتصرفي كالأطفال» فصرخت بعنف «لن أقبل أن ألعب الدور الثانوي... في هذه المهزلة!» وقالت هيلين «قد لا يكون الأمر جدياً».

وتذكرت ذلك المنظر العاطفي الذي شهدته فارتجفت قائلة:

- إنه في نظري جدي كثيراً.

ووقفت هيلين وتقدمت إليها، ومررت يدها لترفع الشعر عن جبهتها، وتنظر بحنان إلى عينيها المحمرتين بالغضب.

- لم تعود فتاة عادية يا داماريس، في الواقع لقد أصبحت امرأة جذابة، ألسنت مهتمة به أبداً كي تقايلي من أجله، ومن أجل رافنسكراج؟

وغطت عينا داماريس رموشها التعب، وجلست دون حراك وهي تعيد التفكير.

لقد كانت مرة، تركض وراء مارك - أو كريستيان يومها - وهي تكافح في العاصفة وقلبها مليء بالحب واللهفة. وقال لها إنه سيتذكرها دوماً لأنها الفتاة الأولى التي يعانقها وسط العاصفة، واقترب منها بعدئذ وكأنها غريبة عنه. وتركها تأكل نار قلبها خلال ذلك الصيف في جنيف، ممزقة بين حبها وإخلاصها لابن العم مارك. وماذا كان يفعل هو خلال ذلك الصيف؟ لم يمضه في انكلترا، لقد عاد إلى الأرجنتين ليقضيه مع روزيتا. ثم وبتأثيره السهل عليها، طوق عنقها بذلك العقد الماسي، وأصبغها بخاتم أمها، ثم عاد ثانية لروزيتا، يطارحها الغرام، في اليوم التالي لخطوبتها له. ورفعت عيناها القاسيتين كالزمرد إلى هيلين، وقالت بهدوء:

- لقد نسيت أنني لم أنشأ في مجتمع متساهل. لقد علمتموني احترام الحقيقة، والصدق والاخلاص. وأنا لا أعتبر مارك ترهران يتساهل أن أقاتل من أجله.

- أنت تعرفينه أكثر مني. تصيحين على خبر يا حبيبتي.

وارتمت داماريس على فراشها غارقة في الدموع.

في اليوم التالي. اتصل مارك هاتفياً، وأجابت داماريس، فقال رداً عليها وهل هذه أنت يا داماريس؟ وعرفت صوته، وغطت السماعة بيدها، وأشارت إلى ماري، فأسرعت للرد ظانة أن المخابرة لها وهمست داماريس قائلة:

- إنه مارك.. قولي له أنني لست هنا، إنني لا أستطيع رؤيته.. أي شيء..

ووضعت السماعة في يد ماري وتراجعت إلى الخلف وهي تشعر بساقبها ترتجفان وقلبها يخفق بسرعة. بما أن صوته أثر بها هكذا فمن المؤكد لن نلتق لقاء.

- لقد حاولت إقناعه، لكنه عرف بأنك هنا. لا تستطيعين الاستمرار بالتهرب منه يا داماريس. يجب أن تواجهيه وتصارح به بالامر.

- ليس لديه الحق بأن يلاحقني هكذا. وليس هناك شيء أقوله له. لقد قال له السيد بريستون كل شيء.

- انه غير راض بهذا، لقد أشار أنه سيتصل غداً، ولكنني قلت إنك لن تكوني موجودة. ولم يصدقني. ولكنك ستأخذين دايغد إلى المدينة اليس كذلك؟

- أجل..

اليوم التالي كانت الشمس رائعة، وكأنها عودة للصيف. وخرجت داماريس مع دايغد إلى المدينة. وقضيا صباحاً سعيداً عند الشاطئ. وكان دايغد مسروراً جداً بمنظر البحر. وأخذت تتساءل، والصبي يلعب ويمرح، لماذا يشعر مارك بهذا التوق ليرأها. لا بد أنه راض تماماً لأنها تخلت الآن عن المطالبة بأي حق لها في رافنسكراج. ربما من المحتمل أنه يريد الانساق معها حول تسليمها أغراضها، وبدأت تشعر بالغباء. فإذا كان الأمر هكذا، فلا سبب لها لأن تخاف. يجب أن تحضر نفسها للقاء المحتوم، وإن تأمل بأن تستطيع السيطرة على مشاعرها. فمن الغباء أن تسمح لنفسها بأن تتأثر من فكرة رؤيته. فهو لا يعني شيئاً لها. لا شيء أبداً.

في اليوم التالي، ارتدى دايغد ثياب المدرسة الجديدة، وبدأ كتلميذ مدرسة مثالي. وتنهدت ماري وهي تراقبه. وقالت له:

- أنت تبدو كشاب صغير يا حبيبي .
والتفتت إلى داماريس قائلة «اليوم الأول في المدرسة علاقة فارقة في حياته .
لقد خسرت طفلي» .

- ربما سيكون لديك طفل آخر عندما تتزوجين .
- أتمنى ذلك سيكون من الجيد لدايفد أن يكون له أخ أو أخت .
بعد أن غادرت ماري مع دايفد نحو المدرسة . وقعت عينا هيلين على ورقة ملفوفة وصاحت :
- اوه . . إنها الجرة التي وعدنا أن نرسلها إلى أحد الفنانين إنه يريد لها في مشروع يعمل به . لا بد أن ماري نسيته .
- سأخذها بنفسني ، المكان ليس بعيداً من هنا .
- اوه . . هل تفعلين هذا؟ هذا لطف منك . سيكون الشاي جاهز عندما تعودين .

والتقطت داماريس الجرة ، وخرجت إلى الشارع ، وأحست بهبة هواء الخريف ومضت في طريقها بين المنازل ، على حافة النهر ، ووصلت إلى منزل الفنان الذي يقع خلف أحد المناطق . وخرج من منزله ليرد عليها ، شاب طويل ملتحي ، وكان يبدو عليه الانهماك في العمل . وأمسك بالجرة قائلاً إنه قد وصل في عمله إلى النقطة التي يحتاجها بها ، وودعته بسرعة وانصرفت . كانت قد قطعت نصف المسافة أثناء عودتها ، عندما توقفت فجأة ، فقد لاحظت أن طيفاً مألوفاً لديها بحث السير باتجاهها وللحظة توقف قلبها عن الخفقان . بينما أخذ الإحساس المعتاد بقدم الخوف يملكها . إذا هو لم يتخل بعد عن ملاحظتها . وتمالكت نفسها ثانية ، وكما قالت ماري ، لا تستطيع الاستمرار بالتخفي ، ويجب أن تسيطر على أعصابها . فليس من سبب أبدا يدفعها لأن تختبئ من مارك ترهران . كما قررت لنفسها تماماً وقد لا يرغب

سوى بمعرفة متى وكيف ستسلم أغراضها . وطردت بحزم إحساسها بضرورة الحرب ، وفردت كتفها وتقدمت للقاء مارك .

٧ - الرجل الآخر

بما ان اللقاء لا مهرب منه ، فقد قررت هيلين أن لقاء في الخارج قد يكون أقل إحراجاً للفتاة من لقاء وجهاً لوجه داخل المنزل ، لذا فقد أخبرت مارك أين يجد داماريس . وكان هو قد قرر أن يكون لطيفاً ولكن صارماً معها . وعندما رآها قادمة نحوه بلباسها العادي وشعرها الذي شعثه الهواء ، ذكرته بالطفلة التي التقى بها على الشاطئ ، والتي أثارت اهتمامه بإصرارها أنها مخطوبة له ، حتى أن الكثير من انزعاجه تبخر . ووقف لها في الطريق وأخذ يمدق بها فتفحصها بطريقة لا تحبها أبداً وقال :

- حسناً يا سيدتي ، لقد قبضت عليك أخيراً .

وعلى الرغم من تصميمها على الثبات ، فقد أحست بالخوف . كان هناك شيء يخيفها في ذلك الرجل ، وهي تعلم أن من حقها أن يغضب . فاستجمعت كل شجاعتها ، ورفعت رأسها متحدية وقالت :

- ما هذه الطريقة بالكلام ! أنا لست ثعلباً كي تطاردني وتقبض علي .

- بل أنت كالثعلب تماماً ، بشعره الأحمر وكل شيء .

- شعري ليس أحمر . . أنا آسفة إذا كنت أزعجك ، لقد قالت لي ماري

إنك تريدني في شيء ، ولكنني لم أعلم أنه ضروري .

- وهل تتوقعين أن أنتظري إلى الأبد من أجل تفسير تصرفك غير العادي ؟

ماذا تفترضين أن تظن شقيقي؟ وعائلة دوكوستا؟ إنهم يتوقعون رؤيتك من جديد .

- في الحقيقة لست مهتمة بمشاعرهم. أما بالنسبة للتفسير، فلا بد أن السيد بريستون قد اتصل بك. ألم يبلغك كل شيء؟
 - لقد أخبرني عن رغبتك في الانسحاب، ولكنه كان قد قال سابقاً أنه عندما رأك في جنيف كنت مصممة على المضي في الزواج. فما بك يا داماريس؟
 هل بردت همتك؟
 - لقد طلبت منه إلغاء خطوبتنا لأنني أدركت أنها غلطة.
 - يلزم إعلان الخطوبة شخصين كذلك فسخها، ولن أحتمل المراوغة يا داماريس، لذا توقفي عن إعطائي هبة باردة وهبة ساخنة.
 - أنا لا أعب. بل أعني ما أقول يا مارك. وليس عندي شيء آخر أقوله لك. لذا أرجوك أن تذهب.
 - لا تكون سخيفة. أنت تتصرفين كالطفل المزعج. وهناك طريقة واحدة للتصرف مع الأولاد المزعجين.
 - أنا كبيرة على أن تضربني على قفائي.
 - اوه... لا... إنه شيء أحب أن أفعله الآن
 ومر بها مجموعة من الأولاد صائحين وتوقفوا لينظروا إلى الرجل الغاضب والفتاة الشاحبة. وقال مارك وقد فقد صبره:
 - لا نستطيع الكلام هنا. تعالي. سيارتي متوقفة في مكان قريب.
 - لا شيء يجبرني على الذهاب معك.
 وتراجعت إلى الخلف باحثة عن مهرب وقال لها من بين أسنانه:
 - ستفعلين ما أقوله لك. يجب أن نوضح كل هذا. ولن أقبل بنزوات ونحيلات فتاة مدرسة مزعجة.

واستدارت لتهرب منه، ولكنه أدركها في خطوتين سريعتين، وقبض على ذراعها بقبضة ثابتة. وشهقت قائلة: «كيف تجرؤ على هذا».
 وبدأ غضبها يتصاعد، وسعت لتحرير نفسها بينما أخذت قبضته تشدد وصرخت بغضب «اتركني، أنت تؤلمني»!
 - أنت تستحقين الألم. هل تأتين معي بهدوء أم علي أن أحملك؟
 - لن يكون هذا ضرورياً، سأتي معك.
 وجرها بعنف عبر الشارع الرئيسي إلى سيارته. وفتح الباب بيده الأخرى، ودفعها إلى المقعد الأمامي وأغلق الباب وراءها بقوة. وأخذت تفرك ذراعها بينما كان يجلس إلى جانبها، وهي تغلي بالغضب. وانطلقت بالسيارة بقوة حتى كادت أن تقع عن المقعد. وتطلعت إلى حزام الأمان، ولكنها كانت متكبرة جداً كي تضعه. فإذا كان سيخاطر بأن يقتلها فلن توقفه. وخرجت بهما السيارة صاعدة التل نحو الوادي بسرعة هائلة.
 كان مارك في أسوأ أوقاته. يتصرف بشراسة. وانعطف نحو طريق الساحل الضيقة. ولحسن الحظ لم يصادفها سيارة في طريقها. وقاد السيارة بصمت، حتى سارعت إلى كسر هذا الصمت أخيراً:
 - وأخيراً أصبحت مؤدباً وبالتالي لوحدك هذه المرة.
 - ماذا تعنين؟
 - لقد كانت معك الأنسة دوكوستا المرة الماضية.
 - ولم لا؟ هي تعرف أين تسكنين، وأنا لا أعرف. هل توقعت أن أفتش عن جحر الأرنب كي أعثر عليك؟
 - ولكن نوم يعرف المكان.

- توم كان مشغولاً. هل انا مضطر لتغيير ترتيب عمل كل الموظفين لدي بسبب غيابك؟ وهل يهم من يأتي معي؟
- لا أبداً.

إذا كان لا يدرك سوء فعله فلا يجب عليها أن تحذره، وساد الصمت مرة أخرى، إلى أن وصلا إلى بوابة تفصل الطريق عن البراري إلى يمينها والمنحدر الصخري للبحر على يسارهما. وخلفهما البحر وساحله يمتدان على طول الصخور، وأمامهما مباشرة مزرعة بيضاء حولها ابقار ترعى. وتوقف مارك، وأطفا المحرك. واستدار في مقعده ونظر إليها، وقال «حسناً! فأجابته «حسناً ماذا؟ فقال:

- ما الذي جعلك تغيرين رأيك؟
- لقد حدث أن رأيتك تعانق روزينا بعد أقل من أربع وعشرين ساعة من إعلانك خطبتك لي.

- وهل هذا كل شيء؟ أخشى أن يكون عناق الفتيات الجميلات نقطة ضعف لدي. وهذا لا يعني شيئاً. كما تعلمين جيداً. ومع ذلك فقد كنت غير حريص على أن لا أدعك تشاهدين الأمر.

- لم يكن ما شاهدت افظع مما سمعت. إنكما.. روزينا، قالت إنكما تحبان بعضكما وإني طفلة مضحكة.

- حسناً. ألسنت كذلك؟

- أوه.. أنا.. أنا أكرهك!

- ربما.. ولكنك ستزوجيني. لقد تماديت كثيراً يا داماريس وستجعلينا أضحوكة الريف كله إذا تخلّيت عني الآن.

- لا أهتم البتة..

- إذاً يجب اجبارك على الاهتمام. وماذا عن رافنسكراج؟ لقد ظننت أنك ستقبلين بأي إنسان في سبيل الاحتفاظ بها.
- لا.. ليس أي إنسان. ليس أنت.

واستدار عنها فجأة.. لقد أصابته هذه الضربة، وشعرت بالانتصار. إنها الآن معاً غاضبان حتى أن رغبتها الوحيدة هي في إيلاء بعضهما البعض. ونظر إلى يديها المرتعدتين المضمومتين معاً.

- ماذا فعلت بالخاتم والعقد الماسي؟ هل رهنيتها.

- أوه! كيف تجرؤ على هذا القول؟ لقد تركتها في القصر...

- حقاً؟ أين؟

من الواضح أنه لم يصدقها.. فقالت له أين.

- هذه طريقة طفولية في التصرف!

وصرخت به بغضب:

- أنت تذكر دوماً أنني طفلة. ومن الواضح أنني لست مثقفة كفاية لأناسيك، فأنا جاهلة جداً و... لا أعرف معنى الحب.

- هذا يمكن تجاوزه يا حبيبي.. وسأكون سعيداً لأعلمك.

وأخذ يبتسم، ولكن دون سعادة، وعيناه فيها اللمحة الساخرة التي لا تحبها. وتقدم نحوها فصفعته بكل ما أوتيت من قوة على وجهه الساخر. وشاهدت آثار صفعتها واضحة على خده الأسمر إلى أن تصاعد الدم ببطء إليه. ولم تعد تشاهد أي شيء آخر بعدها. وعندما تركها جلست شاحبة وهي ترنح وجلس وهو يلتقط أنفاسه، وقال بخشونة:

- لا أنصحك أن تفعل هذا مرة ثانية. فلدي طبع حام جداً.

وساد صمت طويل بينهما، لا يقطعه سوى صوت النورس، وأخذ مارك يستعيد رباطة جأشه، وهي تستعيد السيطرة على أطرافها المرتعدة. ثم قال ببرود:

- آسف إذا كنت قاسياً معك، ولكنك كافية لإثارة غضب ملاك.

- أنت جلف... شرس كبير وشع!

وبرز في عينيه شعاع من الرضى. إن لها روح متحدية غير مروضة مثل روحه تماماً. وقال بهدوء:

- أجل... أنا فعلاً جلف وشرس وانت تكرهيني، ولكنك ستبقي مخطوبة لي. فكري بالأمر يا فتاة. لقد كنت تقولين إن زواجنا هو ما يريدك جدك، عمي الأكبر، منذ أن التقيت بي، وأنتك تنظرين إلى رغباته بتقديس أو ما شابه.

- إنه... لقد اعتقد أنك ستعتني بي.

- حسناً... ألم أفعل هذا؟ لقد أرسلتك إلى أفضل مدرسة في أوروبا وراقبتك... حتى في فالمود. أكنت تعتقدين أنني سأتركك تعيشين مع تلك الطائشة الصغيرة سبليست دون أن آتي لأرى ماذا تتوين فعله؟
- كيف تجرؤ على تسميتها هكذا؟ إذا كانت قد تقدمت لك فلأنك شجعتها.

- لقد تحدثنا بالأمر من قبل. ألم تدفعها أنت لهذا؟

- لو تركتك على سجيته لما احتجت لتشجيع. لقد اعتقدت أنك دائماً ذلك الذئب الكبير الشرير، وأنا مرتبطة بابن العم مارك.
- ولا زلت كذلك

وصمتت. كانت تجد صعوبة في تكيف هذا الرجل الجالس بقربها بالفكرة المثالية التي كانت لديها عن مارك ترهران. فذلك الوهم استمر طويلاً بحيث من غير السهل التخلص منه.

- أنا أكيدة أن جدي لم يكن لديه فكرة أنك... كما أنت...

- على العكس يعرف تماماً، فأنا واحد من عائلة ترهران، ولم يكن أحد منهم قديساً.

- أتعني أنك ملائم لتلك الصورة تماماً.

- أشكرك كثيراً، ولكن كل هذا الكلام لا يوصلنا إلى شيء. لا أستطيع فهمك يا داماريس، لقد اعتقدت عندما كنا في فالمود... ألم يكن عندك مشاعر أرق نحوي يومها؟

- مشاعري كانت نحو كريستيان تريفور، ولكنه غير موجود، أليس كذلك؟ وأدار وجهه عنها، وأصبح تنفسه غير منتظم، فتابعت القول:

- أنا لا أحب الخداع. ومهما كانت دوافعك، فقد خدعتني، وتلاعبت معي... ثم هجرتني.

- كنت سألتقطك ثانية...

- وكيف لي أن أعرف هذا؟

- وهل تصورت فعلاً أنني سأتركك تخرجين من حياتي...

- لقد تصورت... أترى، لم أكن أدري أنك تركض وراء رافنسكراج

- إنه رأي رائع غلكنه عني!

- وهل كان والداك يجبان بعضهما؟

ونظر إليها بدهشة، وتكوّر فمه ببرارة ومن تحدث معك بهذا؟

- إنها إيلينا. زواجنا سيكون مثل زواجهما. . . أليس كذلك؟
 - لا سمح الله. . . لقد كان السبب التعاسة التي مرت بها أمي، لذا أريد أن
 أكون متأكداً. . . آه. . . لا تهتمي بهذا الآن.
 وضرب بقبضته على المقود. وقال:
 - لقد أشار لي السيد بريستون بشيء لم أفهمه حتى الآن، ولكن ربما كان
 على حق. اعتقد أن تلك الرحلة إلى باريس التي أصريت عليها. . .
 - وكيف عرفت بأمرها؟
 - لقد أخبرني. . .
 - ليس لديك الحق لتجسس عليّ!
 - لقد قلت لتوك إن جددك توقع مني العناية بك. كوني واقعية يا
 عزيزتي. . . لا بد أن الأمر هكذا. . . أليس كذلك؟ لقد التقيت هناك بشخص
 ما قررت أن تفضليه عليّ.
 افتراضه هذا كان غير متوقع بحيث إنها لم تستطع سوى التحديق به
 بصمت. وأخذ صمتها على محمل الموافقة فتابع:
 - ذلك الولد الذي كنت معه عندما اتصلت بك ما اسمه. . . إنه يبدأ
 بحرف «د» من هو.
 وأخذت داماريس نفساً عميقاً. فقد نجحت مزحة ماري بأن تعطي التأثير
 المطلوب، ولأن ترد له الدفعة بكل الإذلال الذي سببه لها، وتتعاذل مع
 روزيتا. وإذا كان يحسن اللعب في الخفاء، كذلك هي.
 - إنه صبي لطيف جداً، وهو ينجني.
 - ماذا يعمل؟

وكان السؤال مفاجئاً ولم تفتكر سوى بخطيب ماري «ديك إيفردت»
 فاجابت «إنه ميكانيك في كراج وهو ناجح بعمله».
 - هل هذا صحيح وماذا كان يفعل في باريس
 - الناس يذهبون إلى باريس لقضاء عطلاتهم.
 - فهمت. . . وهل أنت أكيدة أنه لا يجري وراء مالك؟
 - إنه لا يعلم أن لديّ مالاً. فالجميع هنا يظن أنني مساعدة ماري بروت.
 - ما هذه التركيبة! ميكانيكي كراج ومساعدة محل.
 - أشخاص حقيقيون. ولا يهم ما عمل الرجل إذا كان الحب موجوداً.
 - إذاً تعترفين بأنك تخمين هذا الرجل.
 وفكرت بدايلاً، فقالت بكل بساطة «أنا أهتم به حياً».
 - ولماذا لم تقولي لي عن هذا الولد الذي. . . تهيمن به حياً قبل تلك
 المسرحية يوم عيد ميلادك؟
 - وكيف أفعل؟ لم أشاهدك أبداً أمامي، ولم أشعر بأنني حرة. أعني. . . أن
 الأمور كانت تبدو مختلفة.
 - تعنين قبل أن تكتشفي أنني ابن عمك مارك؟
 - تقريباً.
 - ولو أنني كنت ذلك الكبير في السن هل كنت قبلتي؟ أكنت استمررت
 بالاتفاق؟
 - لا أعرف. . . لم أدرك أن كل شيء تغير إلى أن شاهدت المزرعة. كل شيء
 بدا مختلفاً.
 وابتسم بحزن «كل شيء يتغير يا داماريس. . . من الخطأ العودة إلى الوراء».
 وصمت، بينما كانت تتأمل الحقيقة في كلماته. لقد رجعت إلى رافنسكراج

وهي تتوقع أن تكمل حياتها هناك من حيث تركتها قبل سنة مع ابن العم مارك كبديل عن جدّها، ولكنها كانت قد تغيرت هي أيضاً. لم تعد رافنسكراج تعني لها كما كانت في الماضي، وأدركت مع شعور بالذنب لو أن السير هورغ كان حياً، فإن صحبته لوحدها، لن ترضيها أبداً. وحده مارك لم يتغير، ما زال نفس الجلف المستبد الذي التقت به في فالمودن، المصمم دوماً على إخضاع الجميع لإرادته. ولكن هذا الرأي كان خاطئاً، كما أظهرت كلماته وهو يقول بهدوء:

- لقد رجعت وأنت تتوقعين نسخة ثانية من جدك، فوجدتني أنا، وأنا صغير عليك جداً وكبير في نفس الوقت. والشباب ينجذب إلى الشباب. وهناك فارق كبير في اثنتي عشر سنة. لقد أمضيت سنوات في الكفاح وأنت لا زالت طفلة، فاللاتينيون ينضجون بسرعة.

- أظن أن هذا هو السبب، فأنت كثير الخبرة بالنسبة لي. كانت تعلم أن ما قالته زائف. فنضجه وثقته بنفسه هي التي جذبت شبابه إليه، وهي في الواقع لا تهتم بالأولاد من مثل عمرها. وبكل رفق تناول وجهها بين يديه، ونظر في عينيها، وسقطت رموشها لتخفيها. وقال:

- كان يجب أن تخبريني فور أن اتخذت قرارك. بدل أن تهربي، ولكنك متعودة على الهرب...

ولاحظت تلك الرنة الساخرة في صوته، ورجف قلبها وتذكرت فالمودن وتلك الليلة التي هربت من بين ذراعيه. وتذكرت كيف تلاعب بعواطفها بينما طول الوقت كانت عواطفه مشغولة في مكان آخر، فنصليبت تجاهه وقالت:

- لقد اعتقدت أن هذا يوفر الكثير من الجدل العقيم.

- لم أكن لأصدق... ولكن ما كنت جادلتك، فأنا أعرف متى أكون مهزوماً.

وبدأت داماريس تشعر بالندم لخداعها له حول دايفد، وحدثت في وجهه. واخذ غضبها يبرد ليحل مكانه شعور بالخسارة، فقلبها ما زال يميل إلى هذا الرجل. هل هي بهذا الغباء لتتخل عن أكثر شيء ترغب به من أجل كرامتها وكبريائها الجريحة؟ إنه لا يزال مستعداً للزواج منها، على الرغم من أنه لا يحبها. ألا يجب عليها أن تقبل به على ما هو بينا الفرصة متاحة أمامها؟ ما عليها إلا أن تعترف أن من اخترعته كحبيب لها غير موجود، وتوافق على الاستمرار في الخطبة. وقد يمل من روزيتا مع الوقت، وللزوجة أفضلية الرابط الدائم. لقد حشتها هيلين على القتال من أجل ما تريد. ومارك له أخطاؤه، ولكنه رجل قوي قادر، ورافنسكراج ستزدهر تحت سلطته. إضافة إلى أنه من عائلة ترهران، وبينها إرث مشترك، وهذا ما يجب أن يساعدها على فهمه ومحاولة إلزامه بها. واندفعت لتلمس ذراعه قائلة «مارك...» ثم ترددت، فالاستسلام ليس سهلاً، وأدار نظره إليها ثانية وكل الغضب والثورة ذهبا عنه أيضاً. والعينان الزرقاوان كانتا لطيفتان، ولكن بعيدتان. وقال بلطف غير معهود:

- عذراً، لقد كنت أفكر. لو أنك فقط كنت صريحة معي... لما أجبرت نفسي على الاهتمام بك. أنت حرة تماماً لأن تذهبي إلى ذلك الولد، ولكن من بعد إذنك اتركي الخطوبة على ما هي لفترة ثم نفسخها بهدوء.

لقد تأخرت، فقد قبل بقرارها وبكذبتها. والفرصة من أجل التعويض

ذهبت. وسألته بقلق «ورافنسكراج» وتصلب وجهه وقال «سأبقيهما» وصاحت محتجة:

- لا! لا يا مارك.. لا تستطيع أن تفعل هذا!

- إنه الحل الوحيد يا داماريس. فأنت لا تقدرين على العيش هناك، والمنزل كبير جداً عليك، والرجل المرتبطة به ميكانيكي وليس بمزارع. ولكنك من عائلة ترهران.. إنك آخر واحد في السلالة.

- هذا لا يعني لي شيء. ففي الأرجنتين سيدعونني السنيور تريدينيو فالاسماء الانكليزية صعب لفظها على اللسان اللاتيني. وسأعود إلى هناك إلى الأبد. وتتزوج روزيتا.

- من الممكن.

- ولكن إذا تزوجتني هل ستبقى هنا؟

- بما أنني لن أتزوجك فهذا الاحتمال بعيد.

وصمتت. واعتراها شعور بالخدر، وأدار المحرك. لقد حصلت أخيراً على حريتها، وتستطيع الآن أن تستقر مع هيلين وماري. ولكن المستقبل بدا لها فارغاً وموحشاً. وانطلق بالسيارة في طريق العودة. وتابع كلامه بصوت يخلو من كل تعبير:

- نصف ما ينتج من البيع لك بالطبع. لقد قال السيد بريستون إنك تريدين فرسك وسأرسلها لك فوراً. كل ما تريدينه من المنزل ستحصلين عليه. وسأراك دائماً. وعندما أجد الخاتم سأعطيك إياه، وأرجوك أن تضعيه في الأصبع المناسب إلى أن تنتهي أيام هذه الخطبة. إذا لم يكن هذا الطلب كثير عليك.

- لا.. ولكن يا مارك... أنا...

وتابع كلامه وكأنها لم تفل شيئاً:

- سأخذ العقد الماسي، لأنه ليس لعائلة ترهران، هو لامي. إذا سمحت لي.

- شكراً لك يا مارك، طبعاً ليس لدي مانع من أجل العقد، أنت كريم جداً.

- أبداً.. ليس هناك شيء لشكريني عليه، كل ما قدمته لك هو من حقك.

ووصل إلى الموقف، ووقف السيارة وقال:

- هل لي أن أنزلك هنا، فهذا أفضل مكان لي للعودة.

- طبعاً...

- الوداع يا داماريس.. سأراك فيها بعد.

- الوداع يا مارك...

وابتعدت ببطء، بينما استدار هو ليمضي في طريقه. خلال هذه اللحظات الأخيرة.

حيث تم ترتيب مستقبلها، كان ابن العم مارك كما أملت أن يكون لطيف، أبوي ومترفع. ولم يكن هناك أثر لأي انفعال أو عنف أو غضب مما عرفته عنه.

وكما قال، استمر في رؤيتها من وقت إلى وقت. وأخذها لرؤية السد بريستون عدة مرات، إذ توجب عليها التوقيع على بعض الوثائق لإعطائه حرية البيع، وأوراق أخرى لحفظ حقوقها. وكانت أحاديثها دائماً محصورة بالأعمال.

وكان يتجنب كل الأحاديث الحميمة الخاصة، ولم يسألها مرة عما تعمل أو عما تأمل أن تعمل. وفي اللحظة التي يتجه فيها كلامها نحو الخصوصيات كان يغير

الموضوع. حتى تشوقت إلى كسر هذا الروتين، فقالت له مرة:

- في مطلق الأحوال لا زلنا أبناء عم. ألا نستطيع أن نكون أصدقاء؟

- أعتقد أنني أنصرف كابن عم، لقد أعطيتك كل المساعدة التي أستطيعها.

- أجل... وأنا ممتنة لك كثيراً، ولكنك تبدو بعيداً عني...

- يا عزيزتي داماريس... لا تكوني حمقاء... أنت تدركين بالتأكيد أننا لن نستطيع أن نكون مقربين من بعضنا الآن. فأنت آخر إنسان يمكن أن أعامله كصديق.

- لست أرى سبباً لهذا.

- كنت أظن أن الأمر واضح.

وأقبل شهر تشرين الأول. وفي صباح أحد الأيام توقفت سيارة أمام الباب، ونزلت منها إيلينا دوكوستا. ولم تكن داماريس قد شاهدتها منذ ليلة الحفلة. ولم يكن مارك يتحدث أبداً عن زواره. وبدت إيلينا جميلة في بذلة سوداء وقبعة إسبانية كبيرة. وركضت داماريس إلى الخارج لتحياتها، وعانقتها بحرارة، ولوح لها بيدرو من داخل السيارة، ودعتها داماريس للدخول فقبلت.

- لقد آتينا لوداعك، سنسافر بعد غد.

ولاحظت داماريس أنها تنظر إلى يدها التي يزينها خاتم خطوبة آل ترهران، ولكنها لم تشر إلى فسخ الخطوبة. مع أنها لا بد قد علمت بالحقيقة، كما أنها لم تشر إلى روزيتا. وكانت تنظر إليها كمن يتساءل كيف يمكن لأية فتاة أن تقبّع هنا في هذا المكان الصغير وتستغني عن القصر الكبير. ترى ماذا قال لها مارك بالضبط؟ ودخلت هيلين وبعد أن تعارفنا اقترحت هيلين عليها أن تسور المحل. فقالت إيلينا:

- أحب أن أزوره بالطبع، لا بد أنه سيثير اهتمامي.

وأظهرت اهتمامها بالفعل وتفحصت كل الأشياء فيه، واشترت بعض القطع لتأخذها معها إلى منزلها، وأرادت داماريس أن تقدمها لها هدية ولكنها رفضت وأصررت على دفع ثمنها قائلة:

- إنها مورد رزقكم، ولا يجب أن تكونوا كرماء هكذا.

وأشارت مرة واحدة لما حدث قائلة لداماريس:

- أنا آسفة لأنني لم أشاهدك كثيراً. لقد كان مارك مشغولاً على الدوام. كان أمامه الكثير ليقرره. وكان الأمر صعباً... أنت تعرفين ما أعني؟

- أجل أعرف...

ونظرت إيلينا إليها وغيّرت الموضوع. وعندما حان وقت انصرافها قالت:

- أرجو أن تأتي وتزوريني أنا وبيدرو بعد أن تتزوج روزيتا. ونحن نحب أن تكوني بيتنا.

وشعرت داماريس بالبرودة. إذاً لقد تم تسوية كل شيء. ولم يضع مارك وقته. وشعرت بألم في قلبها، ولكنها استطاعت أن تبسم وهي ترد:

- لطف منك أن تدعيني لزيارتكم، ولكن المسافة بعيدة عنكم.

- ليس بالضبط، لأن السفر بالطائرات جعل العالم يصغر، ونحن أقاربك الوحيدون، وبما أننا وجدناك يا ابنة العم الصغيرة، فلا أريد أن أخسرك.

واغرورقت عينا داماريس لهذا الكلام، وقالت بصوت مخنق:

- كم هو جميل منك أن تقول لي هذا يا إيلينا، كنت خائفة أن تكوني غاضبة مني... بسبب مارك.

- ما هذه الأفكار! لا شأن لي بالأمر، وأستطيع القول إن الأمور هكذا هي أفضل.

وخرجت مع إلينا الى السيارة حيث كان بيدرو ينتظر، وخرج ليحييها وهو يقول:

- أنا آسف أننا لم نفعل شيئاً لتسليتك. ولكن عندما تأتين لزيارتنا سيكون الأمر مختلفاً. ستأتين أليس كذلك؟ ستجدين الأرجنتين بلداً جميلاً.

وراقبتها وهما يبتعدان، وهي تتساءل ما إذا كانت ستراها ثانية ومتى. وعند أول مناسبة رأت فيها مارك سألته إذا كان يشعر بالوحدة بعد أن سافر أقاربه. وقالت:

- المكان كثيب قليلاً في المزرعة هذا الوقت من السنة.

- صحيح؟ لم ألاحظ هذا. فانا أتمتع بالسلام والهدوء. وكثير من الصيد والقنص.

- رياضة دموية! أكره قتل المخلوقات.

- أنت شديدة الحساسية، كل شيء سيموت، عاجلاً أم آجلاً.

وبمرور الوقت لم تعد تشاهده كثيراً، كما كانت تتوقع وسألته ماري ما إذا كان الوقت قد حان لانتهاء الخطوبة فقالت لها داماريس والالم يعصر قلبها «سيكون هذا قريباً» وعلمت أن النهاية عندما نحين سيكون هذا آخر رباط لها بمارك.

وأخيراً، قال لها بجفاء بأن الأمور القانونية قد استكملت وأن الترتيبات قد انتهت للإعلان عن البيع. ثم أضاف:

- يجب أن تأتي إلى المزرعة لتأخذي أي شيء ترغبين في أن تحتفظي به.

سأرتب يوماً مناسباً لك مع السيدة غارث، وستتناول الغداء معاً.

- سأكون سعيدة بالقاء آخر نظرة على القصر وتوديعه.

- أوه... إنه لن يزول من مكانه... وربما اشترته الدولة عندها تستطيعين

زيارته متى شئت. ربما سأترك اللوحات العائلية ليراها الزوار. فمن المؤسف أن أخذها إلى الأرجنتين ليأكلها النمل.

- كيف تستطيع المزاح بهذه الأمور هكذا.

- تخلي عن هذا يا فتاة... لا تظهرين بهذه المساوية. ألسنت سعيدة بانتهاء هذا الوضع المستحيل؟

- أجل... سيكون من المريح انتهاء الأمر. فانا أكره كل أنواع الخداع.

- حسناً... ليس عليك أن تذكرني هذا دوماً.

وأخبر وجهها وقد فهمت أنه يعني ما قام به من خداع في فالوند. وتابع:

- أنا آسف لأن أتركك تواجهين كلام الناس لوحدهك. ولكن الإشاعات سرعان ما ستموت. عليّ أن أقول إن الشاب الذي ترتبطين به كان متساهلاً كثيراً. فانا لم أكن لأسمح لفتاتي أن ترتدي خاتم رجل آخر مهما كانت الأسباب.

وأجفلت، فقد نسيت كل شيء حول خدعتها الصغيرة بحق دايشد. إذاً لهذا السبب لم يقترب أبداً من المنزل، فهو لم يرد أن يلتقي بخطيبها المفترض وتابع قائلاً:

- هذا كل ما أردت أن أقوله... سأتصل بك لأبلغك موعد زيارتك. أعتقد أن باستطاعتك أن تأتي في أي وقت؟

- أجل...

- هذا جيد... بعدها لن ترييني أبداً.

ووقعت عليها كلماته كالقدر المحتوم. ونظر إليها متساءلاً وهو يمسك الباب، منتظراً منها أن تخرج من السيارة، فخرجت متساقلة من السيارة التي شهدت أزمت كثيرة في حياتها. وبينما هي تخرج احتك جسمها به، فشرجع

بسرعة. هل لمستها له بغيضة على نفسه هكذا؟

- إلى اللقاء... وفي المرة القادمة ستكون وداعاً.

لن تتركه وهو مقتنع بالكذبة الحمقاء، التي هي أكبر من كذبة الخاتم في إصبعها... فقالت بيأس:

- مارك... أرجوك... قبل أن تذهب، أريد أن أقول لك عن هذا الولد... دايف...

- أرجوك لا أريد أن اسمع أي شيء عنه. عندما أذهب يمكنك أن ترميني وكل ما يتعلق بي ورائك، وتبدأي بداية جديدة. وهذا ما أنوي أنا فعله أيضاً.

واختار مارك يوم السبت لذهابها إلى رافنسكراج، وعندما أقفل الهاتف، أدركت بقلب حزين، أنها ستكون آخر مرة تراه فيها. بعد ظهر غد سيكون آخر مرة تشاهد فيها مارك ترهران وصفحة كاملة من وجودها تنتهي، وستواجه مستقبلاً فارغاً لن يكون هو أو رافنسكراج أي جزء منه.

على كل الأحوال، كانت مصممة لأن تظهر الشجاعة. فهي تكره أن يدرك مارك نوع الورطة التي ستجد نفسها بها، فهي قادرة على تخيل تعبيره الساخر عند أول إشارة للعاطفة قد تظهرها. وإذا كان يتوقع أن يحقق انتقاماً مناسباً منها لمعاملتها له هكذا، فسوف تخيب ظنه.

وأخيراً ذهبت إلى الفراش باكراً لترتاح جيداً قبل يوم الغد الذي سيتطلب

كل جهدها، ولم يكن لديها حدس مسبق أن تلك الرحلة التي تخاف منها قد لا تحدث أبداً.

٨ - ضباب في القلب

عندما حل صباح يوم السبت، كان كل الريف مغطى بضباب كثيف، حجب التلال وملأ الأودية بالبخار الناعم الرمادي. وأخذت داماريس تتساءل عما إذا كان مارك يستطيع الحضور. وخلال تناول طعام الفطور اكتشفوا أن كلب دايفد، بلوتو، غير موجود. وبعدما فتشوا عنه ولم يجدوه، أخذت داماريس تظمن دايفد قائلة إنه إذا لم يعد الكلب فستبلغ البوليس للتفتيش عنه.

ووصل إلى المحل زبائن غير متوقعين، فقد أتوا لزيارة الريف وعندما وجدوا أن الريف كله معتم بالضباب، قرروا التجول في المدينة وشراء التذكارات. وكانت داماريس تساعد ماري في المحل وهما تظنان أن دايفد مع هيلين التي ذهبت إلى السوق. ولم تنتبها قبل نصف النهار، عندما كانت داماريس تصعد إلى غرفتها لتغيير ملابسها للقاء مارك، أن دايفد قد اختفى. وصاحت داماريس بقلق:

«لا بد أنه ذهب للتفتيش عن الكلب» واقترحت ماري المرعوبة الاتصال بالبوليس. وقالت هيلين «من الأفضل أن نفتش عنه قبلاً، قد يكون مع ديك» ولكن ديك لم يكن قد شاهده.

وكانوا في وسط تشاورهم عندما دخل مارك لأول مرة المحل. بعد أن

مضت ساعة لقاءه مع داماريس في موقف السيارات. ونظرت إليه باستغراب، بينما انسحبت ماري وهيلين. وتمتعت داماريس:

- أنا... أنا... لم اعتقد أنك ستأتي... فالضباب...

- لقد أتيت بالطبع. لقد قلت لك ان السيدة غارث ستوقع قدومك على الغداء، وستأخر عليها كثيراً، فأنت لست مستعدة بعد.

- لقد نسيت كل شيء...

- يبدو هكذا. حسناً... اسرعي. لا أستطيع الانتظار طوال اليوم.

- لا يمكن لي أن أذهب معك الآن. لقد حدث شيء.

- كنت أخشى هذا... ماذا حدث؟

- دايفد مفقود.

- دايفد؟

- أجل ابن ماري الصغير. إنه مفقود منذ ساعات.

- دايفد هو ولد؟...

- طبعاً... أوه مارك، إنه في الخامسة من عمره، وفي هذا الضباب قد يقع عن حافة منحدر أو يدهسه أحد...

وانهار صوتها بالبكاء. وفوراً أصبح يقربها، ووضع ذراعه حولها ليهدهاها، وتمسكت به وهي سعيدة بدعنه لها ومرتاحة لوجوده.

- لا تكذري نفسك... سنجده. والآن... متى افتقدتموه. وماذا فعلتم؟

وأخذ زمام المبادرة، فاتصل بالبوليس، الذي وعد بالتفتيش عنه واستخدام الكلاب. واتصل بكل المستشفيات المحلية. ثم اقترح أن تعد لهم هيلين القهوة، وبعض الطعام، قائلاً بلطف:

- يجب أن تحافظوا على قواكم.

وفهمت هيلين الحكمة من وراء اقتراحه، ولكن ماري تكدرت واحتجت:

- لا نستطيع الجلوس دون أن نفعل شيئاً. ولن أستطيع أن أكل.

- من الأفضل ترك التفتيش للمتخصصين به. فلن يفيدك بشيء أن تخرجي

وتقعي من فوق منحدر. ولكنك تستطيعين تحضير الفراش وبعض الأغذية

وقرب الماء الساخنة. سيكون مرتجفاً من البرد عندما يجدونه. ولكن جرّبي أن

تشرّبي شيئاً أولاً.

وأخذ فنجان القهوة وساعدها في ارتشابه. وذهلت داماريس لرؤية هذا

الوجه الجديد لابن العم مارك. فقد التفت النسوة الثلاث من حوله طلباً

للإرشاد وكن سعيدات لوجوده هناك.

وأحس الكلبيان تريس وسول أن شيئاً ما يحدث، فأخذا في النباح فأدخلتهما

داماريس إلى المنزل، ويبدو أنها عرفا مارك، وقفزا عليه مسروران، وبدت له

فكرة:

- هل هما جيدان في اقتفاء الأثر؟

- لا أعرف ولكن يجب أن يكونا كذلك؟

ولكنهما لم يكونا كذلك فبعد أن أرتهما بعض أغراض مارك خرجا ليدورا

حول المنزل ثم عادا وجلسا أمامه دون حراك.

وخاب أمل داماريس، فدخلت مع مارك إلى المنزل. ووصل الكلب الآخر

مبلاً وموحلاً، وأخذ يزحف على قائمته وكأنه يعرف أنه ارتكب خطيئة

ويسمى للغفران. وجففته داماريس ووضعت له طبق طعام. ولكنه لم يلمسه،

بل أخذ ينبج ويدور حول الغرفة. فقالت ماري:

- إنه يبحث عن دايفد. إنه دائم القلق عندما يكون غائباً.

- إذا دعوه يفتش في الخارج.

ووضعت داماريس الرباط له، وراقبته بقلق وهو يدور حول المنزل كما فعل والده. ثم انطلق، وهو يشد الرباط بحيث أن داماريس اضطرت إلى الركض لتلحق به، وكان مارك يسارع الخطى بالقرب منها، وقطع الحيوان الطريق، وقادها نحو الميناء، وهبط قلبها ولكنها ارتاحت عندما استدار بلوتو ليدخل بين كوخين بعيدين عن الماء وبدأ يتسلق. وترنحت داماريس واصطدمت بالصخور وخدشت أصابعها وهي تحاول التوازن، وكان مارك خلفها فالتقطها قبل أن تقع. وكان الضباب الكثيف يمنع الرؤية لأكثر من مترين وسمعت مارك يقول:

- أتمنى أن يكون الكلب يعرف ما يفعل.

- إنه يعرف.

وأخذت تحلق بذنبه المهتز وأنفه اللاصق بالأرض، وقال مارك:

- لا أصدق أن طفلاً يستطيع التسلق هنا.

وتدحرجت بعض الصخور عليه من تحت قدمي داماريس فشبهت وقالت:

- «أسفة يا مارك، لم أستطع تجنبها».

- لا تصرفي نفسك على الاعتذارات سوف تحتاجينه.

وجذب الكلب الرباط فجأة فأفلت من يدها، ووقعت على وجهها وأخذت تنزلق إلى الخلف، فأمسك بها مارك، وأوقفها على رجليها ثابتة، واختفى الكلب وتشبثت بمارك وهي تصرخ بهستيرياً:

- اتعتقد أنه وقع!

- إنه لم يقع.

ومن خلال الضباب فوقهما سمعا صوتاً طفولياً يصرخ بفرح:

- بلوتو! أوه بلوتو!

ووضع مارك ذراعه حولها وقادها نحو الصوت وتحت صخرة كبيرة كان دايفد منكوراً وذراعاه حول عنق بلوتو، وانزلت داماريس من بين ذراعي مارك وانهارت على الأرض.

- أوه... دايفي، دايفي، لماذا أخفتنا هكذا؟

- لقد أردت أن افتش عن بلوتو. إنه يأتي إلى هنا دائماً عندما يكون معنا في نزهة. وخفت أن أنزل. لم أستطع رؤية شيء...

وانفجر بالبكاء. «لقد كنت خائفاً جداً» وأخذته داماريس بين ذراعيها وقالت «أنت بخير الآن». ونظرت إلى مارك وكأنه عامود مظلم وسط الضباب. «ولكن بحق الله... كيف سننزل من هنا؟ الصعود كان سيئاً جداً، أما الهبوط فهو أسوأ بكثير.

وجلس مارك بجانبها عند حافة الصخرة، وقال مقترحاً:

- أعتقد أن علينا الجلوس هنا إلى أن تجدنا فرقة التفتيش، فقد نقع فوق صخرة على وجهنا، ويبدو أن بلوتو لا يريد أن يقودنا.

وكان الكلب قد تعب، وقنع بأن وجد سيده، فجلس تحت قدمي داماريس ونام، فتابع مارك كلامه:

- إنها ليست فكرة مريحة، أنت مبللة وترتجفين من البرد، خلدي معطفي.

- لا... أنت بحاجة إليه، وكنزتي سمكة.

وبصعوبة في ذلك المكان الضيق خلع مارك معطفه ولفه فوق اكتافهم المتقاربة قائلاً:

- نستطيع المشاركة به .
 واجتمع الثلاثة وكلبهم تحت الغطاء، داماريس كانت تضع الولد في حضنها، والكلب إلى جانبها، ووضع مارك ذراعه حول خصرها. وقال دايفد:
 - أنا جائع .
 - لا نستطيع فعل شيء لك . ولكن المساعدة ستأتي حالاً، حاول أن تنام .
 ونام .. بينما حاولت داماريس أن ترتاح في وضعها، واشتدت ذراع مارك على وسطها وجذبها نحو صدره وقال:
 - اتكأي عليّ ...
 واسترخت على صدره . قربه منها، الطمانينة بين ذراعيه الدافئتين كانت مريحة لها . وقال لها بطريقة جافة:
 - أعتقد أن هذا الشخص الصغير هو دايفد الذي تهمين به جاً، لماذا حاولت خداعي؟
 - أردت أنت أنتقم منك بسبب روزيتا، أعرف أن هذا كان سخافة وقد أسفت على هذا منذ ذلك الوقت .
 - يجب عليك أن تأسفي . أما بالنسبة لروزيتا . لا أعتقد أنك قد تدركين ماذا يعني وجود ضيف في بيتك يقلق رأسك وهو قريب لك .
 - ولكن .. ولكنك قلت إنك ستزوجه .
 - لم أقل هذا .. بل قلت «ربما» وهي تعني كل شيء ولا شيء .
 وانت لم تكوني لطيفة معي ، أليس كذلك يا حبيبتي؟
 - أوه يا مارك .. كم كنت غيبة ... ولكن إيلينا قالت إن روزيتا ستزوج، وطلبت مني السكن معها بعد زواجها . وبالطبع اعتقدت أنها ستزوجك ... هل كان .. هل هناك شخص آخر؟

- طبعاً .. فروزيتا لديها عدة خيوط تمسك بها . وعندما قلت لها ان لا فائدة من اضاعها وقتها معي قررت أن تتزوج مانويل راموس، وهو رجل كان يحاول بيدرو أن يدبر زواجها منه منذ زمن .
 - ولكن ... ولكن .. ألم يكن لك علاقة معها؟ لقد قالت إيلينا ..
 - أيجب عليك أن تستمري في الاستشهاد بأختي؟ إنها ليست معصومة عن الخطأ . لست من الغباء بحيث أقيم علاقة عند عتبة بيتي .
 وكانت هذه ملاحظة مع كل ما فيها من سخرية وانتقاد، تبدو مقنعة وتابع:
 - داماريس، هل أنا مخطيء بالاعتقاد أنك تغارين؟
 - وإن يكن؟
 - لا يمكن لأحد أن يغار إذا كان غير مهتم .
 - لم أكن غير مهتمة بك أبداً . لقد كنت غاضبة منك، وكرهتك، حتى أنني ... أحبتك ...
 كان صوتها منخفضاً جداً حتى أنه اضطر إلى إحناء رأسه إلى فمها ليلتقط كلماتها، فسألها بهمس «أحببتني؟»
 - إنه افتتان فتاة مدرسة حمقاء ... وحاولت أن أخمدته .
 - ولكن لماذا؟
 - لأنك ... لأنك لم تشر أبداً ... أبداً أنك تحبني ...
 ومات صوتها وهي تدفن وجهها في كتفه . ولاذ بالصمت للحظات، ثم تكلم بحياء مميز ولا أعرف معنى الحب يا داماريس، فالحب قد يعني أشياء عديدة مختلفة، ربما أشعر به نحوك هو شيء لم أشعر به تجاه ابنة امرأة أخرى .
 وأنا مجبر لأقول لك هذا طبعاً ..
 وضحك وتابع «ومع ذلك ففي الواقع كانت هناك نساء أخريات، ولكن لم يكن هناك شيء جدي، وكنا نفترق دون أسف، ولكن عندما أردت أنت أن

تفسخي الخطوبة، شعرت بحياتي وكأنها قد فرغت بشكل غريب. لقد تركتك لأنني اعتقدت أن سعادتك هي في مكان آخر.

ونحرك الولد وأن قليلاً، ورفع بلوتو رأسه، ورفعت داماريس رأسها وقالت «لقد سمع الكلب شيئاً.. أليس من الأفضل أن تصرخ؟ صوتك أقوى من صوتي».

وقال ببرود «قبل أن أفعل.. هل تعودين إلي يا داماريس؟ في فالمودن اعتقدت على الأقل أنك معجبة بي. وخططت لاتحاد سعيد بيننا، ولكن كل شيء فسد. اعتقدت أنك لن تساعيني لأنني لم أكن عجوزاً مقعداً كما توقعت».

وكان هناك رنة ضحك في صوته. وحاولت داماريس أن تشرح الأمر له، وأذناها تصغيان إلى صوت فريق التفتيش - اعتقدت أن بإمكانني التكيف مع رجل مسن. وجعلتني أنت أبداً بلهاء ثم كانت روزيتا..

- لمن الله روزيتا.. هل هذا جيد؟

- أنت ستبيع رافنسكراج.

- لا أريد بيعها، ولكن لا أستطيع تحمل العيش فيها من دونك.

وسمعا صوت أقدام على الصخور تحتهما ورفعت رأسها لتنادي ولكنه وضع يده على فمها وقال «ردي علي أولاً».

ومن بين أصابعه همست «أهذا ابتزاز؟»

- أجل، اعتبريه ابتزاز.

وابعدت يده عن فمها وقالت:

- إذا ليس لدي خيار آخر. هل لدي يا مارك؟ .. أنا... أنا... ساكون فقط سعيدة جداً لأعود إليك.

ونبح بلوتو..

وفي وقت متأخر فيما بعد، وعندما اكتفيا من وجبة الطعام التي حضرتهما لها هيلين، قالت داماريس:

- سأسحب كلامي الذي قلته في فالمودن عندما قلت إنك لا تشبه بطل الرواية تريستان.

- وما الذي جعلك تقولين هذا؟

- إنها اصداء من «القصر»، ولكنني لم أحب سوى مارك، ومثل ايسوليت لم أجري على تسمية من أحب.

- إنه أول شيء جميل تقولينه لي.

ودخلت ماري بعد أن وضعت دايفد في فراشه وقالت لها:

- إنه يريد رؤيتكما معاً قبل أن ينام... أثمانعان؟

ووقفاً يداً بيد إلى جانب سرير ماري حيث وضعت دايفد، وقد استلقى فوق الوسائد، وبلوتو الذي رفض أن يفترق عنه يتمدد فوق سجادة صغيرة إلى جانب السرير. ونظر دايفد إلى مارك، وشع الإعجاب بالبطل في عينيه. وسأله:

- عندما أصبح رجلاً كبيراً.. هل سأبدو مثلك؟

- أتمنى أن تكون أفضل مني.

- أنا أحبك.

- هذا عظيم يا بني . لأنك ستراني كثيراً بعد أن اتزوج داماريس .
- وهل ستأخذني إلى ذلك المكان «رافن» الذي قالت إنني لا أستطيع
الذهاب إليه؟

وضغط مارك على يد داماريس وأجابه :
- تستطيع قضاء ما يحلو لك من الوقت هناك ، تستطيع أن تكون الأخ
الكبير لأولادنا ، عندما يأتون .

وكانت العينان التي ادارهما نحو داماريس كاللهب الأزرق ، وأصبحت بلون
برقاني . وغرق دايفد في وسائده ، وانخفضت رموشه فوق عينيه ، ونام .
ونتم «يوماً سعيداً» ثم رفع رأسه ليسأل «ولكن ماذا ادعوك؟ هل انت
سير» أم «عم»؟

- ولا واحد من الاثنين ، فأنا لست «سير» قطعاً . ولا أشعر بالعجز لتدعوني
«عم» .

ونظر إلى داماريس نظرة صارمة وتابع :
- لقد عاد إلي شياطيني : ما رأيك أن تدعوني «ابن العم مارك» .